الرسل

س : هل هناك فرق بين الأنبياء والرسل ، وكم عددهم وكيف نعرف تواريخهم؟

ج : النبي إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه .

والرسول إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به وأمر بتبليغه . فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، وسيدنا محمد ﷺ نبي ورسول ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وقال تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] فجمعت الآيتان بين وصفه بالنبوة والرسالة .

وقد يحل لفظ محل الآخر كما قال تعالى ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ ﴾ [الزخرف : ٦ ، ٧] .

هذا أحسن ما قيل فى الفرق بين النبي والرسول ، أما عدد الأنبياء والمرسلين فكثير. قال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] .

وقد ورد حديث رواه ابن حبان في صحيحه عن أبى ذر الغفارى أنه قال : قلت لرسول ﷺ كم عدد الأنبياء؟ «فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا [١٢٤٠٠٠]» فقلت : وكم عدد الرسل ؟ فقال «ثلثمائة وثلاثة عشر جمًّا غفيرا [٣١٣]» ولكن الحديث ليس متواترا حتى على فرض صحته ، فلا يفيد إلا الظن والعقائد لا تؤخذ إلا باليقين .

وهناك أقوال كثيرة لا داعى لذكرها ونحن لا نكلف إلا بمعرفة الرسل الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، وهم خمسة وعشرون ، وأكثرهم فى الآيات : من ٨٣-٨٦ من سورة الأنعام ، وأولها ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ﴾ وهم فيها ثمانية عشر ، يضاف إليهم سبعة ذكروا في مواضع أخرى ، نظمها بعضهم في قوله :

فـي تلـك حجتنا منهم ثمانـية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهـم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وجاء ذى كتاب «الحاوى للفتاوى» [1] ، أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله ، أنبى كان آدم ؟ قال «نعم» قال : كم بينه وبين نوح؟ قال «عشرة قرون» قال : كم بين نوح وإبرهيم ؟ قال «عشرة قرون» قال : يا رسول الله كم كانت الرسل ؟ قال : «ثلثمائة وخمسة عشر» رجاله رجال الصحيح .

وجاء في الكتاب أن بين موسى وعيسى ألفا وتسعمائة ونيفا ، وبين عيسى ومحمدﷺ نحو ستمائة .

وترتيب الرسل هكذا : آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، ذوالكفل ، داود ، سليمان ، إلياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد عليهم الصلاة والسلام .

هذا وحديث أبى ذر الذي صححه ابن حبان ذكره ابن مردويه فى تفسيره وقال: إن ابن الجوزى خالف ابن حبان فى تصحيح الحديث

وذكره فى الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام ، قال الحافظ ابن كثير : ولاشك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث [2] .

أما تواريخ الرسل فقد ألفت فيهم عدة كتب ، والقرآن الكريم اقتصر على ما يهم من هذه التواريخ ، وهو صادق فيما قاله ، فقصصه أحسن القصص ، ما كان حديثا يفترى ، وما عدا ذلك من الأخبار فهو محل نظر ، وكتب التفسير محشوة بكثير منها ، ونحن لانكلف إلا بمعرفة الصادق الذى لا يتعارض مع ما أخبر به القرآن والحديث الصحيح والمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار حاول فى كتابه عن الأنبياء أن يستخلص ما هو أقرب إلى الصحة إن لم يكن مقطوعا بها ، والحذر من قراءة الكتب القديمة المحشوة بالإسرائيليات وبما لا يتناسب مع مقام الأنبياء من التكريم والتشريف .

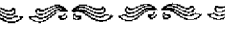

س : من هم أفضل الأنبياء والمرسلين ، وما هى درجاتهم فى الفضل ؟

ج : مبدئيا نقول : إن التفاضل بين مخلوقات الله موجود ، سواء فى الأشخاص وفى الأزمان والأمكنة وغيرها . وهذا التفاضل أو الاختلاف من أقوى الأدلة على

---

١ - للسيوطى ص ٢٤٩ .

٢ - المواهب اللدنية للقسطلاني ، ج ٢ ص ٤٦ .

أن للعالم خالقا حكيما مريدا عالما قادرا على كل شيء ، وليس العالم - كما يقول الفلاسفة والملحدون ـ مخلوقا بالطبيعة أو بالعلة ، فمعلوم أن معلول العلة لا يتخلف ومطبوع الطبيعة لا يختلف . ومن مظاهر التفاضل في العالم في المكان فضل الكعبة والحرم ، وفضل المساجد ، وفى الزمان فضل رمضان ويوم الجمعة وليلة القدر ، وفى الأشخاص فضل الرسل ، وفضل العلماء . . . . . والنصوص في ذلك مشهورة .

وبخصوص المرسلين قال الله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وإن كانوا جميعا متساوين وفى درجة واحدة من وجوب الإيمان بهم جميعا ، كما قال سبحانه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٨٥] وأفضلهم على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ وذلك بالنص والإجماع ، وقد رفع الله درجته من عدة وجوه لخصها بعضهم بأنها فى ذاته وذلك بالمعراج حيث وصل إلى مقام لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبى مرسل ، وفى شرفه بالسيادة على جميع البشر فهو القائل « أنا سيد الناس يوم القيامة »[1] ، وفى معجزاته حيث أوتى القرآن الذى لم يؤته نبى قبله ، وبعموم رسالته وغير ذلك .

أما التفاضل بين الأنبياء بعضهم مع بعض فهو موجود كما تنص عليه الآية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء : ٥٥] . والمعتمد أن الرسل أفضل من الأنبياء.

والتفاضل فيما بينهم موجود لكن الأفضل ألا نبحث عن وجوه الفضل بين نبى وآخر أو رسول وآخر ، فقد يؤدى ذلك إلى اختلاف يمكن أن يكون نتيجته غير طيبة ، ولذلك ورد النهى من النبى ﷺ عن ذلك فعلى الرغم من فضله عليهم . فقال «لاتفضلوا بين الأنبياء» وذلك فى حادث نزاع يهودى مع مسلم وحلف اليهودى أن موسى أفضل العالمين[2] . وقال «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» قال العلماء : إنه قال ذلك من باب التواضع ، وقال القاضى عياض: لا نفضل بعضا على بعض تفضيلا يؤدى إلى تنقيص بعضهم أوالغَضّ منه، قال

١- رواه البخارى ومسلم . ٢- رواه البخارى ومسلم .

ابن حجر : قال العلماء : إنما نهى ﷺ عن ذلك من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل، أي من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، وللمزيد يمكن الرجوع إلى شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [1] .

جاء في فتاوى الإمام النووي المسماة بالمسائل المنثورة في المسألة رقم ٣٥٤ : رجلان قال أحدهما: إن نبينا محمدا ﷺ أفضل الأنبياء وأشرفهم ، وقال الآخر : هذا الكلام لا يجوز ، وهذا اعتقاد باطل ، وقال : لا يجوز تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، فأيهما المصيب ؟ وهل يعزر واحد منهما على هذا القول ؟ .

الجواب : هذا الذي اعتقده الأول هو الصواب ، وهو اعتقاد المسلمين ، وقد تظاهرت الدلائل على تفضيل نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وأما الرجل الثاني فمخطئ في كل ما قاله ، وعليه التعزير في قوله .. ولا يجوز الكلام في هذا ولا التفضيل ، إلا أن يكون جاهلاً لا يعلم قول الله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء : ٥٥] وفي الحديث الصحيح المشهور أن رسول الله ﷺ قال «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» [2] . وأما الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال «لا تفضلوا بين الأنبياء» [3] . فأجاب العلماء عنه بخمسة أجوبة مشهورة ، أحدها: أنه ﷺ نهى قبل أن يعلم أنه أفضلهم ، فلما علم قال «أنا سيد ولد آدم» والثاني : أنه نهى عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة ، كما ثبت في الصحيح في سبب هذا الحديث عن لطم المسلم اليهودي ، والثالث : نهى عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص بعضهم ، لا عن كل تفضيل . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والرابع : قاله تواضعاً ، والخامس : نهى عن التفضيل في نفس النبوة لا في ذوات الأنبياء وعموم رسالاتهم وزيادة خصائصهم .

١- ج ٦ ص، ١٣٠ ـ ١٤٠ .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه مسلم .

س : هل تمكن معرفة الفترات التى فصلت بين الرسل ؟

ج : لم يرد تحديد الزمن الذى بين كل رسولين ، لا فى القرآن ولا في السنة ، مع العلم بأن عدد الرسل كبير ، والذين جاء ذكرهم في القرآن خمسة وعشرون فقط ، قال تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء : ١٦٤] وقال ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ ﴾[غافر :٧٨] .

وحاول بعض المؤرخين تحديد الفترات التى بين الرسل ، مثل محمد بن سعد فى كتابه «الطبقات» فذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان بين موسى بن عمران وعيسى ابن مريم عليهما السلام ألف سنة وسبعمائة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وأنه أرسل بينهما ألف نبى من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبى ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث فى أولها ثلاثة أنبياء ، وهم فى قوله تعالى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس : ١٤] والذى عزز به «شمعون» وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربعا وثلاثين سنة . وذكر الكلبى أن بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمسمائة سنة وتسعا وستين ، وبينهما أربعة أنبياء ، واحد من العرب من بنى عبس ، وهو خالد بن سنان . قال القشيرى : ومثل هذا لا يعلم إلا بخبر صادق . وقال قتادة : كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة ، وقاله مقاتل والضحاك ووهب بن منبه ، إلا أن وهبا زاد عشرين سنة ، وعن الضحاك أيضا أربعمائة وبضع وثلاثون سنة .

وذكر ابن سعد عن عكرمة قال : بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام ، قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمرو بن واقد الأسلمى عن غير واحد قالوا : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، وبين إبراهيم وموسى بن عمران عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، فهذا ما بين آدم ومحمد عليهما السلام من القرون والسنين[1] وهى كلها أخبار لا يسندها دليل معتبر .

١ - تفسير القرطبى ج ٦ ص ١٢١ .

س : ما الحكمة في بعثه الرسل كلهم في الشرق الأوسط من الأرض؟

ج : ليكن معلوما أن الله سبحانه أرسل رسلا كثيرين كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر : ٧٨] وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ١٢٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[النحل : ٣٦] نعلم من هذه النصوص أنه يجوز أن يكون الله سبحانه قد أرسل رسلا فى غير منطقة الشرق الأوسط ، على أن المختصين قالوا : إن العمران البشرى بدأ أول ما بدأ فى هذه المنطقة ، وذلك لاعتدال جوها وكثرة خيراتها المتاحة من المياه ، والنبات وغيرها ، ووجود عوامل ساعدت على تجمع الناس وتكوين وحدات مستقرة ، أو على الأقل متعاونة متحدة ، والغالب أن يكون لهذه العلاقات الاجتماعية أثر كبير على الفكر والسلوك ، الذى قد يشيع ويعم الوحدة الاجتماعية كلها ، ومن هنا كانت الحاجة أمسَّ لإرسال رسول يهدى الضالين فى العقيدة والسلوك ، فالرسول لا يأتى لأفراد متناثرة ولكن لوحدات مترابطة ، حتى لايكون للناس على الله حجة ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .

س :ما هي الحكمة في أن يكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة مثلاً؟

ج : الرسل المبلغون عن الله إلى المكلفين إما ملائكة وإما إنس وإما جن ، أما الملائكة فلا يمكنهم أن يقوموا بالرسالة لعدم التوافق بينهم وبين من يرسلون إليهم ، وجاء النص على ذلك فى قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٥] . وذلك بعد قول الكافرين : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٤] وقوله : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[الأنعام : ٨ ، ٩] .

وأما الجن فلا يكون منهم رسل إليهم مع أنهم مكلفون ، لأن جنسهم لايستطيع أن يحقق الخلافة فى الأرض التي خلق الله لها آدم أبا البشر ، فآدم وذريته هم المقصودون بهذه الخلافة بعد أن أفسد من كانوا قبلهم ، والجن تبع للإنس ، فلم يبق إلا الإنس يختار الله منهم رسلا إلى الإنس وإلى الجن أيضاً ، وقد جاء النص على أن الرسول محمد ﷺ أرسل إلى الإنس والجن ، وأن بعضهم استمع إلى القرآن وآمن به . ومراعاة التوافق والتناسب بين الرسل والذين أرسلوا إليهم مذكورة في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم : ٤] . والمكذبون للرسل عجبوا أن جاءهم منذر منهم أي من جنسهم وقالوا عن نوح عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾ [المؤمنون :٣٣، ٣٤] كما قالوا عن محمد ﷺ : ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء :٩٤] .

س: هل الأنبياء معصومون قبل الرسالة ؟

ج : جاء فى تفسير القرطبى [1] لقوله تعالى : ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى : ٥٢] - أن القاضى عياض ذكر أن للناس خلافا فى عصمة الأنبياء قبل النبوة . والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شيء من ذلك . وقد تعارضت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، كما عرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم . قال تعالى عن يحيى ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ [مريم : ١٢] وقال عن عيسى الذى تكلم فى المهد ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣﴾ [مريم : ٣٠ -٣٣] ، وذكر أشياء عن سليمان وإبراهيم ويوسف... إلى أن قال : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّئ واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك ، ومستند هذا الباب هو النقل .

---

١ - ج ١٦ ص ٥٥ وما بعدها .

ثم ذكر القرطبى أن نبينا محمدا ﷺ هل كان متعبدا بدين قبل الوحى أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا ، لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عرف تابعا . وبنوا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف فى أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشىء من ذلك ، إذ لم يحل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها فى أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبى المعالى . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به . ثم اختلف هؤلاء فى التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبله ، فلا يجوز أن يكون النبى على دين منسوخ ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ، لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ، لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعتزلة إلى أنه لابد أن يكون على دين ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا .

وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ، إذ هى أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة وإن كان العقل يجوز ذلك كله . والذى يقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضى أن يكون واحدا من أمته ومخاطبا بكل شريعته ، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم عز وجل ، وأنه كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمر ولا شهد الساحر - موضع السحر - بل نزهه الله وصانه عن ذلك . . . . ومعروف من سيرته أنه كان يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلفة فى الحج وكان يقف هو بعرفه لأنه موقف إبراهيم عليه السلام .

ثم بيَّن القرطبى معنى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى : ٥٢] فقال جماعة : معنى الإيمان شرائع الإيمان ومعالمه ، ذكره الثعلبى ، وقيل : تفاصيل هذا الشرع ، أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل ، ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ، ذكره القشيرى ، وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ، وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة :١٤٣] أى صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون

اللفظ عاما والمراد الخصوص . وذكر أقوالا كثيرة غير هذه . ثم قال : الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأته إلى حين بلوغه ، وقيل: المعنى : كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت : ٤٨] انتهى [1].

س : من هم أولو العزم الذين أمر الله نبيه أن يصبر كما صبروا؟

ج : يقول الله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[الأحقاف : ٣٥] أولو العزم مختلف فيهم على أقوال كثيرة ، فقيل : هم كل الرسل ، ولفظ «من» للبيان لا للتبعيض ، وقيل : هم بعض الرسل مع اختلاف فى تعيينهم وفى عددهم ، ومن أقوى الآراء أنهم المذكورون فى قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب : ١٧] وسموا بذلك لأنهم صبروا كثيرا فى تبليغ دعوتهم حتى نصرهم الله . ومن صور معاناتهم ما جاء فى قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

س : هل يجوز تمثيل الأنبياء والرسل على المسارح وفى الأفلام ؟

ج : التمثيل لفظ مأخوذ من مادة فيها المشابهة ، فيقال : هل هذا الشىء مثل هذا الشىء أو مماثل له ، إما من كل الوجوه أو بعضها ، والشخص الذي يقوم بتمثيل شخص آخر يحاول أن يكون مشابها له فى فعله أو قوله أو أشياء أخرى .

١- يمكن الرجوع فى عصمة الأنبياء إلى الجزء الثانى من المواهب اللدنية ص ٨٢ للقسطلانى والشفا للقاضى عياض .

وقد قرر الخبراء أنه لا يمكن مطلقا أن يقوم أحد بتمثيل شخصية أحد آخر تمثيلا كاملا من كل الوجوه ، فالتفاوت حاصل لا محالة بين الأصل والصورة ، والكذب موجود دون شك ولو بقدر ، وهذا التفاوت الكاذب إن كانت الصورة فيه أحسن من الأمل فقد يقبلها الأصل لأنها لا تسبب له ضررا ، أما إن كانت أقل من الأصل فقل أن يكون هناك رضا عنها من الأصل ، وهنا يكون الممثل قد آذاه ، وإيذاء الغير بدون وجه حق ممنوع عقلا وشرعا ، لأنه ظلم والظلم حرام ، والنصوص فيه كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] والإيذاء أعم من أن يكون ماديا أو أدبيا ، وفى الحديث الحسن « لا ضرر ولا ضرار » .

لقد منع العلماء تمثيل الشخصيات المحترمة ، وهى درجات أعلاها الأنبياء والرسل ، هؤلاء يحرم تمثيلهم على الإطلاق ، كما يحرم رسمهم وتصويرهم ، وذلك لأمور :

١ - أن التمثيل أو الرسم أو التصوير لا يكون أبدا مطابقا تمام المطابقة للأصل كما قدمنا ، فهو كذب بالفعل إن لم يكن معه كذب بالقول ، والكذب عليهم حرام بالنص ، ففى حديث البخارى ومسلم «من كذب علىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وهذا إن كان فى حق النبى ﷺ ، فكل الأنبياء والرسل فى ذلك سواء .

٢ - أن فى عدم الدقة فى تمثيلهم أو تصويرهم - وهى غير ممكنة - إيذاء لهم ، وبخاصة إذا كانت الصورة أقل من الأصل ، وإيذاؤهم حرام ، بل أشد حرمة من إيذاء شخص عادى ، قال تعالى فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب :٥٧] وإيذاء أي رسول كإيذاء الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .

٣ - أنهم قدوة للغير ، فالكذب عليهم بالتمثيل ونحوه تضليل لمن يقتدون بهم ، قال تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام بعد ذكر عدد من الأنبياء يبلغون ثمانية عشر نبيا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] وقال فى حق النبى ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] .

٤ - أن التمثيل أو التصوير إذا لم يكن جيدا ربما يهز الصورة التي عند المشاهدين عن هذه القمم الشوامخ من احترامهم وتقديسهم ، وذلك مدعاة للانصراف عنهم وعدم حبهم أو الاقتداء بهم ، والناس مأمورون بحبهم وباتباعهم .

ولهذه الأمور ولغيرها كان تمثيل الأنبياء والرسل أو تصويرهم أو التعبير عنهم بأية وسيلة من الوسائل حراما ، ذلك فى فتوى للشيخ حسنين مخلوف في شهر مايو ١٩٥٠م [1] ولجنة الفتوى بالأزهر فى شهر يونيه ١٩٦٨ م ، ومجلس مجمع البحوث الإسلامية فى فبراير ١٩٧٢ ، والمؤتمر الثامن للمجمع فى أكتوبر ١٩٧٧ م ، ومجلس المجمع فى أبريل ١٩٧٨ م ، ودار الإفتاء فى أغسطس ١٩٨٠ م .

وكان منطلق التحريم هو أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، فإذا كانت الثقافة تحتاج إلى خروج على الآداب فإن الضرر من ذلك يفوق المصلحة - وذلك إلى جانب مبررات التحريم التى سبق ذكرها - كما جاء فى عبارة دار الإفتاء : أن عصمة الله لأنبيائه ورسله من أن يمثل بهم شيطان مانعة من أن يمثل شخصياتهم إنسان .

ويمتد ذلك إلى أصولهم وفروعهم وزوجاتهم وصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن جهة العبرة من قصص الأنبياء قال : كيف تتأتى الاستفادة من تمثيل إنسان لشخص نبى ، ومن قبل مثل شخص عربيد مقامر سكير رفيق حانات وأخ للدعارة والداعرات ، ومن بعد يمثل كل أولئك أو كثيرا منهم ؟ .

س : هل كان الأنبياء ملتزمين للوحى الذى يأتيهم من عند الله ، أو كانت لهم اجتهادات فى بعض الأحيان لا يلتزمون فيها بالوحى؟

ج : ذكر القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] أن العلماء اختلفوا فى جواز الاجتهاد على الأنبياء ، فمنعه قوم ، وجوزه المحققون ، لأنه ليس فيه استحالة عقلية ، فالعقل دليل شرعى ، وهو

---

١ - الفتاوى الإسلامية ـ المجلد الرابع صفحة ١٢٩٧ .

يكون إذا لم يوجد نص ، وفى بعض الأحيان لا يكون هناك نص فى مسألة ، بل لهم الاجتهاد فى النص ، وهم معرضون للخطأ فيه ، إلا أن الله سبحانه لا يقرهم على خطئهم .

وذكر القرطبى أن النبى ﷺ سألته امرأة عن العدة ، فقال لها « اعتدى حيث شئت » ثم قال لها «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» وقال له رجل : أرأيت لو قتلت صبرا محتسبا أيحجزنى عن الجنة شىء؟ فقال «لا» ثم دعاه فقال « إلا الدين ، كذا أخبرنى جبريل عليه السلام» وقد قرر القرآن الكريم أن داود أخطأ فى الحكم فى قضية الغنم التى أكلت زرع الفقير ، وفهم الله الحكم الصحيح لسليمان ، فذلك دليل على أن الأنبياء لا يقرون على خطئهم ، فحكمهما كان باجتهاد كما رآه الجمهور ، وليس حكم داود بوحى نسخه وحى نزل على سليمان .

وقد ثبت أن النبى ﷺ استشار أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فى شأن أسرى بدر ، ثم اختار رأى أبى بكر ، وأقره الله عليه وأباح له فداءهم وأحل له المال الذى أخذه فدية ، قال تعالى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال : ٦٨ ، ٦٩] كما ثبت أنه قبل اعتذار بعض المنافقين عن تخلفهم عن الغزوة بناء على ما أبدوه من أعذار ، فنزل فى ذلك قوله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣] .

فالخلاصة أن الأنبياء لهم الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص ، وفى فهم المراد من النص، ويجوز عليهم الخطأ على رأى الجمهور ، إلا أنهم لا يقرون على خطئهم ، وقد وقع الاجتهاد من بعضهم كداود وسليمان ومن سيدنا محمد ﷺ ، وصوره كثيرة ، وقد ثبت أنه ﷺ استعمل القياس فى اجتهاده ، فقد صح فى البخارى أن امرأة من جهينة قالت له : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها؟ قال «حجّى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فإنه أحق بالقضاء» وروى مسلم أن رجلا قدم من جيشان - باليمن - فسأل الرسول ﷺ عن شراب

يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له «المزر» فقال له «أوَمُسكر هو» ؟ قال : نعم ، فقال «كل مسكر حرام» .

وإذا كان الرسول ﷺ اجتهد فللمسلمين فيه أُسوة حسنة ، أى يجوز لهم الاجتهاد، فى حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فقد أقر سعد بن معاذ فى بنى قريظة حيث حكم بقتل الرجال وسبى الذرارى والنساء وأخذ أموالهم وقال له «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» [1] ، ولما توجه الصحابة إلى بنى قريظة قال لهم « لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة ، فوقف بعضهم عند النص احتراما له ولم يصل العصر إلا فى بنى قريظة وقد فات الوقت . وفهم بعضهم من النص أن المراد هو الإسراع والمبادرة فصلى العصر قبل الوصول إلى بنى قريظة حفاظا على الوقت ، ولما ذكروا ذلك للنبى ﷺ لم يعنف واحدا منهم [2] ، وإقراره لمعاذ حين بعثه إلى اليمن حين قال فى القضاء : أقضى بالكتاب فإن لم أجد فبالسنة ، فإن لم أجد أجتهد رأيي ولا آلو ، حيث قال له : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله» [3] .

س : هل يرث ابن النبى أباه في النبوة ، أو أنها هبة من الله سبحانه لمن يصطفيه؟

ج : يقول الله تعالى عن دعاء زكريا ربه ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[مريم : ٥، ٦] ويقول : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل : ١٦] ويقول ﷺ « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» [4] ويقول «إن العلماء ورثة الأنبياء» [5].

---

١ - كما رواه البخارى ومسلم .

٢ - رواه البخارى ومسلم .

٣ - أبو داود والترمذي .

٤ - رواه البخارى ومسلم ، الجامع الكبير للسيوطى ص ١٠٤٧ .

٥ - رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان وغيرهم .

تحدث القرطبى فى تفسيره [1] عن التوارث بين الأنبياء ، وذكر أن هناك ثلاثة آراء للعلماء فى النصوص التى تثبت الوراثة ، هل هى وراثة نبوة ، أو وراثة حكمة ، أو وراثة مال ؟ وبيَّن أن وراثة النبوة مستحيلة ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبى مرسل - يعنى يمكن لأى إنسان أن يقول أنا نبى ، أو معى قسط من النبوة حتى الكفار - ووراثة العلم والحكمة رأى حسن ولا مانع منه ، ومثلها وراثة العلماء لعلم الأنبياء ، ووراثة سليمان لداود هى من هذا القبيل ، أما وراثة المال فهى غير ممنوعة ، لكن كيف ذلك والحديث يمنع ؟ وأجاب عن ذلك بأن وراثة زكريا ووراثة داود ، لا مانع منها ، وما جاء في الحديث فهو خاص بالنبي محمد ﷺ ، وعبَّر بصيغة الجمع ويقصد نفسه هو ، فهذا التعبير سائغ ، ويمكن أن يراد به أن ما تركناه على سبيل الصدقة لا يورث كالتركة .

يؤخذ من هذا أن وراثة النبوة ممنوعة ، فهي هبة من الله يعطيها من يصطفيه من عباده ، يقول ابن عطية : داود من بني إسرائيل وكان ملكاً ، وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه ، فسمي ميراثاً تجوزاً ، يعني أن الله هو الذي أعطاه ذلك باصطفائه له ، وليس إرثاً حتميًّا من أبيه كما تورث الأموال .

ومهما يكن من شيء فإن ذلك أمر لايعنينا بعد أن ختمت النبوة بسيدنا محمد ﷺ ، وليس لأحد من بعده ـ وبخاصة ممن ينتسبون إليه ، أن يدعيها كميراث وكان من حكمة الله أنه لم يجعل لنبيه ولداً يعيش من بعده حتى لا يدعي وراثة النبوة ، وعلينا أن نهتم بميراثه الذي تركه لنا وهو العلم ، الذي نبه أحد الصحابة إليه ، حيث قال لهم : أنتم هنا وميراث الرسول ﷺ يقسم في المسجد ، فلما ذهبوا لم يجدوا إلا حلقة العلم فعرفوا أنها المقصودة بالميراث .

وهو شرف كبير أن يكون العلماء هم ورثة هذا الهدي النبوي الذي أوصى بالتمسك به كما جاء في الحديث «تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي» [2] .

---

١ - ج ١١ ص ٨١ . ٢ - رواه الحاكم وصححه .

س : هل هناك رسل أرسلت إلى الجن وديانات كلفت بها؟

ج : الجن مكلفون كالإنس ، والنصوص فى ذلك كثيرة ، منها قوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] والتكليف لا يتم إلا برسالة لئلا يكون للناس على الله حجة ، قال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾[الأنعام : ١٧٠] .

ومما يؤكد إرسال رسل إلى الجن قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن : ١ ، ٢] ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

فالرسل إلى الجن هم من الإنس ، ولم يثبت أن الله أوحى بشرع إلى جنى ليبلغه إلى الجن ، بل كانوا يسمعون من الرسول البشر ، وهم بدورهم يبلغون ما سمعوه إلى قومهم كما تدل عليه هذه الآية ، والمهم أنهم مكلفون ، سواء أكان الرسول بشرا أم جنيا .

س : يقول بعض الناس إن الرسل السابقين لم يبعثوا إلا إلى الإنس فقط ، وأما سيدنا محمد ﷺ فمن خصائصه أنه أرسل إلى الإنس والجن فهل هذا صحيح؟

ج : سبق أن ذكرنا أن الجن مكلَّفون كالإنس ، ولا بد للتكليف من رسالة رسول، ومن المؤكد أن النبى ﷺ أرسل إلى الجن كما أرسل إلى الإنس ، قال ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن : ١، ٢] وقال ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف : ٢٩-٣١] . فهل قولهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ....﴾ يدل على أن موسى كان مرسلا إلى الجن ، أو لم يكن مرسلا إليهم ولكنهم عرفوا أن كتابا نزل عليه ، وهل معرفتهم بموسى تدل على إيمانهم به أو عدم إيمانهم؟ .

بعض العلماء يقول : كان الجن الذين لقوا النبى ﷺ يهودا يعني آمنوا بموسى. ومنهم عطاء الذى قال : كانوا يهودا فأسلموا وارتضى القرطبى فى تفسيره هذا الرأى [1] ويقول ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، وقوله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يراد به التوراة لا الإنجيل ، فهل هؤلاء الجن كانوا مقيمين بالمنطقة التى أرسل فيها موسى فقط ، ولم يدخلوا المنطقة التى أرسل فيها عيسى ؟ وهل كان إيمانهم بموسى تكليفا ألزموا به أو كان اختيارا منهم دون تكليف ؟ وكل ذلك مع التسليم بأن كل الجن مكلفون بعبادة الله ومحاسبون يوم القيامة ، ومن الجائز أن يرسل إليهم رسل غير المذكورين فى القرآن وهم خمسة وعشرون ، فالله يقول ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

ولعدم التأكد من رسالة موسى وعيسى وغيرهما إلى الجن قال بعض العلماء ، ومنهم مقاتل بن سليمان من رجال التفسير : لم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ [2] .

وارتضى القرطبي هذا القول واستدل عليه بما رواه مسلم في صحيحه عن جابر ابن عبد الله الأنصاري أن النبي ﷺ قال «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت

١- ج ١٦ ص ٢١٧ .
٢- تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢١٧ .

الشفاعة» قال مجاهد : الأحمر والأسود هما الجن والإنس ، وفى رواية من حديث أبى هريرة «وبعثت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون» .

ويفرع القرطبي على ذلك مسألة يقول فيها : إن الجن كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وبه قال أبوحنيفة قال: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم، وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون فى الإساءة يجازون فى الإحسان مثل الإنس، وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى ، وقد قال الضحاك وابن مزاحم : الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيرى : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله . انتهى ما قاله القرطبي .

وجاء فى شرح الزرقانى على المواهب اللدنية للقسطلانى [1] أن من أدلة مالك على الثواب والعقاب قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ثم قال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] والخطاب للإنس والجن ، فإذا ثبت أن فيهم مؤمنين ومن شأن المؤمن أن يخاف مقام ربه ثبت المطلوب . وجاء فى الرد على أبى حنيفة فى أنهم لا يثابون بأن الثواب مسكوت عنه - أى فى الآية التي استدل بها - وأن ذلك من قول الجن فيجوز أنهم لم يطلعوا على ذلك وخفى عليهم ما أعده الله لهم من الثواب.

وبعد ، فإن الكلام فى ثواب الجن المؤمن من أمور الغيب وقول القشيرى فيه صحيح ، وليس ذلك مما يهمنا عمليا فى الدنيا ، وما ذكرته إلا للسؤال عنه من جملة الأسئلة الكثيرة التى توجه إليَّ . ومن أراد الاستزادة فعليه بكتاب «أكام المرجان»[2].

١- ج ٥ ص ٦٩ . ٢- للشبلى ص ٣٤- ٦٣.

س : هل هناك حساب للأنبياء والرسل يوم القيامة ؟

ج : ليكن معلوما أن أحوال الآخرة من الغيب لا تعرف إلا بخبر صادق من القرآن والسنة ، واعتقاد هذه الأحوال يكون عن نص قطعى الثبوت والدلالة وما وراء ذلك يدخل فى دائرة الاجتهاد الذى لا يلزم اعتقاد نتيجته ، ولا يكفر من لا يصدقه .

وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦] .

وهو سؤال عن التبليغ لا عن الأعمال التى يمارسها كل مؤمن ليجازى عليها ، فذلك ما يطلق عليه اسم الحساب الذى يتصل به عرض الكتاب وقراءته ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

غير أن هناك استثناءات من الحساب جاء بعضها فى الحديث المتفق عليه أن سبعين ألفا من أمة النبى ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وعينهم بقوله «وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» .

ومن المعلوم أن الرسل قد عصمهم الله من الذنوب وغفر لهم ما عسى أن يكون قد صدر عنهم فى صورة ذنب وهو ليس بذنب ، وما دام الله قد غفر لهم فعلى أى شيء يحاسبهم حساب مناقشة ، وإذا كان المذكورون من السبعين ألفا لا يرقون إلى درجة الأنبياء والرسل قد أعفاهم الله من الحساب فهل يكون للأنبياء والرسل حساب ؟ نعم سيسألون عن تبليغ الرسالة كشهادة على أممهم أما سؤال الحساب وما يترتب عليه من جزاء فلا .

وإذا كان الأنبياء لا يسألون فى القبر فكيف يحاسبون يوم القيامة ؟

يقول الشيخ الصاوى فى كتابه [1] : اتفق جمهور أهل السنة على عدم سؤال شهيد الحرب ، والسر فى ذلك كونهم أحياء فلذلك لا يغسَّلون وكذلك الرسل والأنبياء لا يسألون أيضاً على التحقيق .

س : هل صحيح أن الأنبياء أحياء في قبورهم ، وكيف نوفق بين حياتهم فيها وقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾؟

ج : معلوم أن كل كائن حى لابد أن يموت ، قال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] وقال تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] وقال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

وبعد موت الإنسان ستكون هناك حياة له من نوع آخر ، فإذا فنى الجسد وصار ترابا فالروح باقية ، ولها اتصال إلى حد ما بالجسد تختلف درجات هذا الاتصال من شخص لآخر ، وقد قال الله سبحانه فى الشهداء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وبخصوص الأنبياء روى أبو داود والبيهقى أن النبى ﷺ قال : «من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، وإن صلاتكم تعرض علىَّ» قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت - بفتح الراء - يعنى بليت؟ فقال : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» وروى أبو داود أيضا حديث «ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد عليه السلام» وروى أحمد والنسائى والحاكم وصححه وغيرهم حديث «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوني عن أمتى السلام» .

---

١ - مشارق الأنوار ص ٢٩.

يقول السيوطى [1] : حياة النبي ﷺ في قبره وحياة سائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا ، لكثرة الأدلة وتواتر الأخبار ، وقد ألف البيهقى جزءا في حياتهم ، ومن الأخبار ما رواه مسلم أن النبي ﷺ ليلة أسرى به مر على موسى وهو قائم يصلى في قبره ، وصح أن النبي ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفى السماء .

جاء فى وصف موسى عندما عرج به «فإذا هو رجل ضرب جعد كأنه رجل من شنوءة» ومعنى ضرب متوسط الحجم أو ضعيف اللحم ، ومعنى جعد شعره غير سبط ، وشنوءة قوم من الزط سمر اللون وهذا يؤكد رؤيته البصرية .

وجاء في هذا الحديث أيضا «وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم...» فهل رآهما في قبريهما كما رأى موسى في قبره ، أو رآهم يصلون فى المسجد الأقصى حيث جاء فى الحديث : فحانت الصلاة فأممتهم .

بعد الأخبار المذكورة وبعد كلام السيوطى في تواتر الأخبار وكثرة الأدلة على حياة الأنبياء في قبورهم يمكننا أن نطمئن إلى ذلك ولا نكذب ، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ أفضل من الشهداء ، وقد قال الله فيهم : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ولا يقال : قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل ، لأن محل ذلك ما لم يرد نص وقد ورد .

وحياتهم فى القبور مختلف في كيفيتها ، وجمهور المسلمين على أنها حياة حقيقية لامجازية ، وقد وضح الفخر الرازي ذلك فى تفسيره لهذه الآية .

وأما قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فمعناه أن روحك ستفارق بدنك وتدخل فى عالم آخر كسائر الناس قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء:٣٤ ، ٣٥] .

---

١ - فى كتابه «إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء» .

وحديث رد روح النبى ﷺ ليجيب من يسلم عليه إن كان ظاهره يفيد أن روحه الشريفة تفارق جسده الشريف فقد أجاب على ذلك العلماء بأجوبة أوصلها السيوطى إلى سبعة وعشرين وجها ، أحسنها أنه ﷺ يكون مستغرقا بمشاهدة حضرة القدس فيفنى عن إحساسه الشريف ، فإذا سلم المسلم عليه ترد روحه من هذا الاستغراق إلى الإحساس لأجل الرد ، كما نرى في الدنيا من يكون مشغول البال قد لا يحس بمن يتكلم بجواره [1] هذا ، وعدم أكل الأرض أجساد الأنبياء ثابت بالحديث السابق ، وهو حديث صحيح عند كثير من العلماء كابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقره الذهبى كما صححه النووى في كتابه «الأذكار» .

والعقائد وأخبار الغيب تؤخذ من الأدلة القطعية فى الثبوت والدلالة والخلاف موجود فى كفاية حديث الآحاد فى ذلك ، وما دام الأمر داخلا فى قدرة الله سبحانه ، مع اختلاف قوانين عالم الغيب والشهادة ، ومع عدم مصادمة ذلك لأمر متطوع به فالقلب يطمئن إلى قبوله .

س: ورد سؤال من عميد كلية التربية بالجامعة الإسلامية الحكومية في سومطرة الشمالية بإندونسيا سنة ١٩٧٢م يقول : ظهر كتاب في إندونسيا بعنوان «القرآن وتاريخ الإنسانية» ، قرر فيه مؤلفه بإسهاب أن أول الإنسان هو أنثى لا رجل وأن أهل الأديان جميعاً أخطأوا في قولهم . إن أول البشر آدم، واستدل بأدلة عقلية وعملية ، مستأنسا بقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ﴾ ويسأل :

---

١ - المحنة الوهبية ص ٦.

١ - هل يجب الاعتقاد بأن أول البشر هو آدم عليه السلام ، وما حكم من قال: إن أول البشر على الإطلاق أنثى لا رجل؟

٢- هل يوجد من علماء المسلمين سلفا وخلفا من يقول بأن أول البشر على الإطلاق أنثى لا رجل ؟

ج : اعلم أن القرآن لم ينزل ليعلم الناس حقائق علمية في المجالات المختلفة ، ولكنه نزل للإعجاز والهداية ، يحدد ما يجب تحديده كالعقائد والعبادات ، ويضع أصولا كلية وأوامر عامة فيما يختلف باختلاف البيئات والعصور ، غير أنه إذا وردت فيه مسائل علمية بقصد الإعجاز والهداية فإنها حق لا شك فيه حتى لو لم يفهمها الناس ، فإن جهلها لا يضر ، أو أن الزمن كفيل ببيان المراد منها عندما تحتمل أدوات المعرفة.

وقد نصح العلماء بعدم الإسراع لربط المكتشفات الحديثة بالقرآن ، فقد تكون هذه المكتشفات ما تزال في طور النظرية القابلة للتغيير ، فلا ينبغي أن تحمل عليها آيات القرآن حملاً قد يكون فيه تعسف ، وقد يضر بتقدير الناس للقرآن عندما يتبين أن هذه النظريات خطأ .

وتاريخ الإنسانية الذي يشير إليه عنوان الكتاب ومحاولة معرفته عن طريق القرآن ليس من المسائل الجوهرية في الدين ، فلم يكلفنا الله بمعرفته ولم يوجب علينا اعتقاد ما ليس فيه نص عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وأولى بالمسلمين - خصوصا فى هذه الأيام - أن يبحثوا عن وسائل النهوض بهم ومجاراة ركب التقدم السريع على الأسس المتينة التى خططها الإسلام للوصول بالمجتمع الإسلامى إلى المستوى الرفيع ، وليحقق أنهم خير أمة أخرجت للناس .

ومهما يكن من شيء فإليك ما يأتي خاصا بهذا الموضوع .

١- سيدنا آدم هو الخليفة في الأرض قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة :٣٠] فالملائكة لم تكن تعرفه من قبل ، وكانوا يظنون أنه سيفسد كما أفسد من قبله ، ولن يكون على مثالهم هم من الطهر ودوام الطاعة لله ، فهو خلق جديد عليهم .

٢- خلق آدم من تراب مبلل بالماء فصار طينا ، ولما أمر الله الملائكة بالسجود له امتنع إبليس ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[ص : ٧١-٧٤] وقد برر إبليس امتناعه عن السجود بقوله ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص :٧٦] فآدم خلق غير معروف من قبل للملائكة ولإبليس ، فهو جديد عليهم ليس له مثال سابق.

٣- إن البشر جميعاً منسوبون لأصلهم الأول وهو آدم ، قال تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٧] فآدم أول المخلوقات البشرية .

٤- إن الله خلق من نفس آدم - أي مادته وهي التراب ، أو من جسده بعد أن سواه ونفخ فيه الروح وهذا لم يدل عليه دليل قاطع - خلق من نفس آدم زوجها ليسكن إليها ويأنس بها وهي حواء ، قال ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[الأعراف : ١٨٩] .

والنفس المذكورة هي آدم ، ولفظ النفس مؤنث وإن كان معناه قد يكون مذكرا، فهو يطلق على الذكر والأنثى ، مثل لفظ شخص يصلح لإطلاقه على كلا النوعين ، ولفظ الزوج يطلق على الرجل والمرأة فيقال : علي زوج فاطمة ، وفاطمة زوج علي، وهما زوجان ، والمراد بالزوج في هذه الآية حواء الأنثى قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] فالخطاب لبني آدم الذكور ، والمنة عليهم بأن جعل الله لهم من أنفسهم زوجات نساء، ومن هؤلاء الزوجات يأتي البنون والحفدة ، فالرجال هم الأصل والنساء تبع لهم .

٥- خلق الله آدم أولا ثم خلق حواء ، قال تعالى ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر : ٦] فالتعبير بلفظ «ثم» يفيد الترتب في الزمن أو الرتبة ، وهو على كل حال يفيد سبق آدم لحواء ، ووجه الله الخطاب في القرآن لآدم وجعل حواء زوجه تبعاً له ، وهو يشعر بتقدم آدم عليها . قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] وكما تشير إليه آية سورة النحل السابقة «بند ٤».

٦- ضمير الخطاب والغيبة في الآيات المذكورة كلها مذكر وليس مؤنثاً فآدم ذكر وليس أنثى ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

نخلص من هذا إلى حقيقتين أولاهما ، أن آدم هو أول البشر على الإطلاق ، وثانيهما : أنه ذكر لا أنثى ، واللغة العربية التى نزل بها القرآن هي التي أوصلتنا إلى هذا الاستنتاج ولم نجد فيما اطلعنا عليه أن أحدا من العلماء المسلمين قال غير ذلك ، فصار إجماعا مستندا إلى ما ذكر من الأدلة .

وفي الختام أقول : إن محاولة التشكيك في أن أول البشر ذكر هو آدم ممهدة للقول بنظرية «داروين» في أصل الأنواع وفي النشوء والارتقاء التي تجوز أن آدم جاء نتيجة لتطورات خلقية سابقة ، قد يكون مبدؤها أصلاً أنثويًّا وجدت فيه الروح ، فكان الكائن الحي الذي تطور إلى آدم البشر السوي ، ومعروف أن نظرية «داروين» لم تسلم من النقد ، ورفضها أكثر العلماء المحققين ،لأنها تقوم على افتراضات غير ثابتة يقينا .

ومع ذلك فقد قلت فيما سبق : إن المسألة ليست اعتقادية ولا تتوقف صحة الإيمان عليها ، غير أن من خالف مواضعات اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم كان معارضاً للانزلاق إلى استنباطات واهية ونتائج غير صحيحة قد تمس حقائق الدين المتفق عليها فيضل ويشقى . وهذا إلحاد في التفكير يخشى أن يندرج تحت قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

وينبغى ألا نزج بالقرآن فى كل شيء لم يثبت . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران :٧].

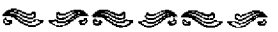

س . هل من الحديث ما يقال . إن الله خلق آدم على صورته ؟

ج : روى البخاري فى كتاب الاستئذان ومسلم فى بيان صفة الجنة أن النبى ﷺ قال «إن الله خلق آدم على صورته» وفى رواية مسلم «خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ...» وفى آخرها «فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعا، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»[1] .

والضمير فى قوله «صورته» يصح أن يكون راجعا إلى الله تعالى ، أى خلقه على صفة الله من الحياة والعلم والسمع والبصر وغيرها ، أو يكون راجعا إلى آدم ، أى أن الله أوجده على هذه الصورة والهيئة التى خلقه عليها ، لم تنتقل فى النشأة أحوالا ، ولا تردد فى الأرحام أطوارا كذريته ، بل خلقه رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح .

وهذا التفسير يرد على الطبيعيين والماديين أصحاب مذهب النشوء والارتقاء ، الذين يزعمون أن آدم أصله قرد تطور حتى صار بهذا الشكل ، وإذا كانت هناك غرابة فى طوله وهو ستون ذراعا كما رواه البخاري ومسلم ، فإن أثر البيئة على طول الأجسام وقصرها معروف فى كثير من المناطق فى العالم كله . والمسافة بين خلق آدم وبعثة الرسول فوق ما نقل عن الإخباريين من أهل الكتاب الذين قالوا : إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة .

على أن للذراع معايير مختلفة ، فقدر بقبضة النصل أو السيف أو الرمح أو القناة ، وقدره البعض بخمسة سنتيمترات ، فيكون طول آدم ثلاثة أمتار ، وهو معقول .

---

١ - ج١٧ ص ١٧٨ .

يقول الإمام الغزالى [1] تعليقا على هذا الحديث : للعلماء فيه وجهان ، فمنهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه ، فرآه النبى ﷺ فنهاه وقال «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» وتأولوا عود الضمير على المضروب .

والوجه الآخر أن يكون الضمير الذى فى « صورته» عائدا إلى الله سبحانه . ويكون معنى الحديث أن الله خلق آدم على صورة هى إلى الله سبحانه . وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فإذًا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى . ثم استطرد الغزالى فى الكلام الذى لا مجال لنقله هنا فيرجع إليه من أراد الاستزادة .

س : ما معنى الخلافة التي وصف الله بها آدم عليه السلام ووصف بها الحكام؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] جاء فى تفسير القرطبى أن آدم عليه السلام خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول فى الأرض إلى أولاده ، ومن هذه الآية كانت مشروعية نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة . اهـ

وقد يطلق اسم الخليفة على من يخلف غيره من الحكام والولاة بعد موتهم أو زوال حكمهم وولايتهم ، أو يخلفه عند غيابه كنائب أو وكيل عنه ، ومن الأول الخلفاء الراشدون والأمة الإسلامية التى قال الله فيها ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : ٥٥] .

ومن الثانى نيابة هارون عن موسى عند ذهابه للميقات ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

وقول الله تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ص : ٢٦] يحتمل أن يكون معناه خليفة لتنفيذ أحكام الله كآدم عليه السلام ، أو خليفة جاء

---

١ – فى كتابه «الإملاء على إشكالات الإحياء» المطبوع على هامش الإحياء ج ١ ص ١٦٨ .

بعد خلفاء سابقين ، يقول الأصفهانى فى المفردات : والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه فى الأرض ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ١٦٥] والخلائف جمع خليفة .

وبهذه المناسبة يقول النووى [١] : ينبغى ألا يقال للقائم بأمر المسلمين « خليفة الله» بل يقال : الخليفة : وخليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، ولا يسمى أحد خليفة الله تعالى بعد آدم وداود عليهما الصلاة والسلام ، ولم يرض أبوبكر قول رجل له : يا خليفة الله ، وقال : أنا خليفة محمد ﷺ وأنا راض بذلك يقول الماوردى[٢] : إن الإمام سمى خليفة لأنه خلف رسول الله ﷺ فى أمته فيجوز أن يقال : يا خليفة رسول الله ، وعلى الإطلاق فيقال : الخليفة ، واختلفوا هل يجوز أن يقال : يا خليفة الله ؟ فجوزه بعضهم لقيامه بحقوقه فى خلقه ، وامتنع جمهور العلماء من جواز ذلك ، ونسبوا قائله إلى الفجور .

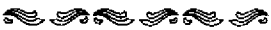

س : ما هي الأسماء التي علَّمها الله لآدم عليه السلام؟

ج : قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة : ٣١] .

الأسماء التى علمها الله لآدم ليس فيها نص صحيح ، وكل ما ورد فهو أقوال اجتهادية ومن أقرب الأقوال فى كيفية التعليم أن الله أعطى آدم القدرة على تسمية أى شىء يعرض عليه ، عن طريق العقل والاستنباط والملائكة لا يمكنها أن تستقل بذلك ، فما علمته من الله علمته ، وما لا فلا ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[البقرة : ٣٢] .

---

١ - الأذكار : ص ٣٥٨ .

٢ - الأحكام السلطانية : ص١٥ .

جاء فى تفسير القرطبى [1] قوله : اختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن على قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط ، قال ابن عباس «وعلَّم آدم الأسماء كلها» قلت - أى القرطبى-: وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى وهو الذى يقتضيه لفظ «كلها» وذكر حديث البخارى فى الشفاعة العظمى وأن المؤمنين قالوا لآدم : وعلمك أسماء كل شيء . قال ابن عباس: علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب ، وقال الطبرى : علمه أسماء الملائكة وذريته ، واختار هذا ورجحه بقوله : «ثم عرضهم على الملائكة» وذكر القرطبى أقوالا أخرى ، واختار أنه علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها.

من هذا نرى أن الأسماء ليس فى المراد منها نص صريح صحيح ، والأقوال كلها اجتهادات ، ولا داعى لإرهاق أنفسنا فى معرفتها ، ولولا أن الأسئلة بشأنها طرحت علينا لما اهتممنا بالإجابة عليها .

س : هل صحيح أن آدم عليه السلام هو أول من تكلم اللغة العربية ؟

ج : لا يوجد دليل يعتمد عليه فى معرفة اللغة التى كان يتكلم بها سيدنا آدم عليه السلام ، وما نسب إليه من الشعر عند قتل ولده قابيل لا أصل له .

وفى تفسيرالقرطبى [2] الروح نفخت فى آدم فلما وصلت إلى رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل : الحمد لله ، فقال الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك. وهذا رواه السدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وليس عليه دليل من قرآن أو سنة .

١- ج ١ ص ٢٨٢ . ٢- ج ١ ص ٢٨١ .

إن اختلاف اللغات أساسه أنها مواضعات بين جماعة من الناس اصطلحوا عليها للتعبير عن أفكارهم ولقضاء مصالحهم ، واعتمدوا فيها -إلى جانب ما اعتمدوا- على تقليد أصوات الحيوانات والطيور وحركات الريح وغيرها . ولكل جماعة بيئتها وظروفها التى أملت عليها اختراع اللغة التى يتفاهمون بها وآراء الباحثين فى هذا الموضوع كثيرة ، والمهم أن نعنى باللغة العربية لغة القرآن الكريم ، لتصحيح العقيدة والسلوك وتقويم اللسان وزيادة الأجر .

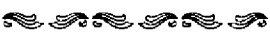

س : هل صحيح أن المرأة خلقت من ضلع آدم ؟

ج : قال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء : ١] وقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف : ١٨٩] وقال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾[الروم : ٢١] وقال ﷺ «إن المرأة كالضلع ، فإذا ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج»[1] ، وقال «واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيرا»[2] وقال فى رواية لمسلم «وكسرها طلاقها» .

يقول الفخر الرازى فى تفسيره لأول سورة النساء : وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان : الأول - وهو الذى عليه الأكثرون - أنه لما خلق الله آدم ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى . . . . . واحتجوا بحديث مسلم «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج» والثانى - وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى - أن المراد من قوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى من جنسها وهو كقوله ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وقوله تعالى ﴿بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال القاضى: والقول الأول أقوى وذكر وجه قوته .

---

١ - رواه مسلم . ٢ - رواه مسلم .

والطبرى فى تفسيره وكذلك القرطبى ذكرا أن القول الأول هو لابن عباس وابن مسعود ، لكن ليس لهذا النقل سند صحيح ، بل هو منقول عن أهل الكتاب كما فى سفر التكوين [1] .

ومن هذا نرى أن خلق حواء من آدم ليس أمرا متفقا عليه ، فقد يكون خلقها من نفسه يعنى أنها خلقت من جنسه وهو الطين وليس من النور أو النار حتى يمكن أن يسكن إليها ، وما جاء فى الأحاديث أنها خلقت من ضلع قد يراد به التشبيه كما فى الرواية الأولى فليس هناك نص قاطع في الثبوت والدلالة على خلقها من ضلع آدم ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال . ولا يضر الأخذ بأى الرأيين .

وقد علق النووى على الأحاديث بقوله : وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم ، قال الله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وبيَّن النبى : أنها خلقت من ضلع . وفى هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن وكراهة طلاقهن بلا سبب ، وأنه لا يطمع باستقامتها والله أعلم [2] .

س : من الذى سمى حواء بهذا الاسم ؟

ج : جاء فى تفسير القرطبى [3] أن آدم عليه السلام هو أول من سمى حواء بهذا الاسم حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ، ولو تألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ، فلما انتبه قيل له : من هذه ؟ قال امرأة ، قيل :

١- الإصحاح الثانى : ٢١ -٢٤ .

٢- شرح صحيح مسلم ج ١٠ ص ٥٧ ، والموضوع مستوفى فى الجزء الثانى من موسوعة « الأسرة تحت رعاية الإسلام» ، س ، ج للمرأة المسلمة .

٣- ج ١ ص ٣٠١ .

وما اسمها ؟ قال حواء ، قيل ولم سميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت ، قال : ولم سميت حواء؟ قال : لأنها خلقت من حى .

ثم يستطرد القرطبى ويقول : روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم؟ قال : نعم : قالوا لحواء : أتحبينه يا حواء؟ قالت : لا، وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه ، قالوا : فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء .

وهذا كله لا دليل عليه ، يحتمل أن يكون وألا يكون ، ولا طائل تحت الجدال فيه.

س . هل صحيح أن سيدنا آدم دفع مهرا للسيدة حواء صلاة على النبى ﷺ ؟

ج : جاء فى «المواهب اللدنية» للقسطلانى وشرحها للزرقانى [1] أن الله سبحانه لما خلق آدم خلق له حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو نائم فلما استيقظ ورآها سكن إليها ومد يده إليها فمنعته الملائكة حتى يؤدى مهرها ، فقال : وما مهرها؟ قالوا : تصلى على محمد ﷺ ثلاث مرات . وذكر ابن الجوزى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ فى كتابه «سلوة الأحزان» أنها لما سمعت كلام الملائكة طلبت مهرها من آدم فسأل ربه كم يعطيها؟ فقال : صل على حبيبى محمد بن عبد الله عشرين مرة ، ففعل ، وجاء فى بعض الروايات أن الله زوجه إياها وخطب فى ذلك خطبة .

ولم يذكر الكتاب سند هذا الكلام ولا درجته من القبول وعدمه ، فنحن فى حل أن نصدقه أو لا نصدقه . ولا يضرنا الجهل به .

١- ج ١ ص ٢٥ .

س : ما هي الجنة التي كان بها سيدنا آدم ، هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى؟

ج : هناك خلاف بين العلماء فى الجنة التى أسكن الله آدم فيها ، وأخرجه وأخرج إبليس منها ، هل هى الجنة التى أعدها الله ثوابا للمؤمنين بعد البعث والحساب ، أو هي جنة فى الدنيا أى بستان من البساتين؟

جاء فى المواهب اللدنية للقسطلانى وشرحها للزرقانى [1] وفى تفسير القرطبى [2] أن جمهور الأشاعرة قال : هى جنة الخلد ، بل حكى إجماع أهل السنة عليه ، لأن اللام فى قوله تعالى ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] هي لام العهد ، ولامعهود ولا معروف إذ ذاك غيرها، ولقوله تعالى فى وصفها ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه : ١١٨، ١١٩] وذلك صفة جنة الخلد ، ولقوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ ﴾ والهبوط يكون من علو إلى أسفل ، ولا يستقيم ذلك فى بستان مخلوق على الأرض ، ولأن موسى لما لقى آدم عليهما السلام ، وقال له : «أنت أتعبت ذريتك وأخرجتهم من الجنة ، لم ينكر ذلك آدم ، وإنما قال : أتلومنى على أمر قدره الله علىَّ قبل أن أخلق» الحديث صحيح ، ولو كانت غيرها لرد على موسى .

وقيل : هي غير جنة الخلد ، حكاه منذر بن سعيد ، زاعما كثرة الأدلة عليه ، وحكاه الماوردى وابن عقيل والقرطبى والرمانى وغيرهم . واختلف القائلون به ، فقال بعضهم : هى بستان بأرض عدن ، كما فى القرطبى ، أو بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان كما فى البيضاوى . وقال الرازى وابن عقيل : ويحمل هؤلاء اهبوط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما فى قوله تعالى ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ [البقرة:٦١] .

وقيل : هى جنة أخرى كانت فى السماء السابعة ، وهو قول أبى هاشم ورواية عن الجبائي . قال ابن عقيل : وهى دعوى بلا دليل ، فلم يثبت أن فى السماء غير بساتين جنة الخلد . وقال هؤلاء : إن جنة الدنيا جعلها الله دار ابتلاء لآدم وحواء ،

١- ج ١ ص٦١ . ٢- ج ١ ص ٣٠٢ .

لأن جنة الخلد إنما يدخل إليها يوم القيامة ، وهذه دخلت قبله ، ولأن جنة الخلد دار ثواب وجزاء وليست دار تكليف وأمر ونهى ، ودار سلامة من الآفات والخوف وليست دار ابتلاء ومحن ، ودار قرار لقوله تعالى ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر : ٤٨] وليست دار انتقال ، وآدم وحواء وإبليس انتقلوا منها .

وأجاب القائلون بأنها جنة الخلد بأن الدخول العارض غير الدائم قد يقع قبل يوم القيامة ، بدليل أن نبينا محمدا ﷺ دخلها ليلة الإسراء ، ثم خرج منها ، وأخبر بما فيها وأنها جنة الخلد حقا ، وبأن ما ذكره أهل الرأى الثانى من أن الجنة لا يوجد فيها ما وجده آدم من الحزن والنصب والتعب بانكشاف عورته ومحاولة تغطيتها بورق الجنة إنما هو إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة كما يدل عليه سياق الآيات كلها ، فإن نفى ذلك مقرون بدخول المؤمنين إياها .

يقول الزرقانى : ليس الرأيان متساويين ، فقد قال القرطبى : هى جنة الخلد ولا التفات إلى ما ذهب إليه المعتزلة والقدرية من أنها جنة دنيوية فى عدن ، وذكر أدلتهم وردها بما يطول .

ورجح الرمانى فى تفسيره أنها جنة الخلد أيضاً ، وقال : هو قول الحسن وعمر وواصل . وعليه أهل التفسير .

هذه صورة من الخلاف حول الجنة التى سكنها آدم وخرج منها ، وهو أمر لايجب علينا اعتقاده ، والذى يهمنا هو العمل الصالح حتى نعود إلى الله ويمتعنا بجنة النعيم.

س : هل صحيح أن الله لم يتب على آدم إلا بعد أن استشفع بسيدنا محمد ﷺ؟

ج : جاء فى «المواهب اللدنية» للقسطلانى وشرحها للزرقانى [1] أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لما اقترف آدم الخطيئة - قال:

---

١ - ج١ ص٦٢ .

يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لى ، فقال الله تعالى : يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال : يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله تعالى : صدقت يا آدم إنه لأحب خلق الله إلى ، وإذ سألتنى بحقه قد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك»[1].

يؤخذ من هذا أن استشفاع سيدنا آدم بسيدنا محمد ﷺ ليس حديثه صحيحاً ولاحسنا ، بل هو ضعيف ، ولا تثبت به عقيدة ، ولا يكفر من يكذب ذلك .

س : بعد أن طرد الله إبليس من الجنة كيف استطاع أن يوسوس لآدم وهو في الجنة ؟

ج : قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ، ٢١] يستفاد من ذلك أن إبليس تحدث مع آدم وحواء بعد أن طرده الله من الجنة ، وسمى الله هذا الحديث وسوسة ، فكيف تمت وهو خارج الجنة وهما فى داخلها؟

يفيد ظاهر الآية أن الحديث معهما كان عاديا بالنطق والمشافهة ، وليس حديث نفس ألقى فى قلبهما منه ، والحديث الشفوي قد يسمى وسوسة ، وبخاصة إذا كانت فيه سرية ، إن الكلام كثير فى كيفية هذه الوسوسة ، وليس له سند صحيح يعتمد عليه، ولا يبعد أبدا أن يكون إبليس قد وقف على باب الجنة ولم يدخلها وتحدث مع آدم وحواء ، ويعلم من هذا أنه لم يدخل الجنة بعد أن طرده الله منها .

---

١ - رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال البيهقى : تفرد به عبد الرحمن ، أى لم يتابعه عليه غيره فهو غريب مع ضعف راويه ، ورواه الحاكم وصححه ، وذكره الطبرانى وزاد فى آخره « وهو آخر الأنبياء من ذريتك»

وما يقال عن أن إبليس دخلها فى جوف حية ، وكان منظرها جميلا ، ولما أبت كل الحيوانات إدخاله قبلت هى ذلك ، فحولها الله إلى هيئتها المعروفة لنا وصارت من أعدى الحيوانات لبنى آدم ، ليس عليه دليل معتبر .

س : لماذا قبل الله توبة آدم ولم يقبل توبة إبليس ؟

ج : توبة الإنسان إلى الله معناها الرجوع إليه من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، وتوبة الله على الإنسان معناها قبول رجوعه إليه ، والتجاوز عما تاب منه ، بمعنى عدم معاقبته عليه . والرجوع لا يكون إلا بترك ما تاب منه الإنسان ، ثم الندم على فعله ، والعزم الأكيد على عدم العود إليه ، ولا يتم الترك إلا بإرجاع الحقوق إلى أصحابها ، أو طلب تنازلهم عنها .

ولا تقبل التوبة إلا إذا وقعت قبل الغرغرة ساعة الاحتضار ، وقبل أن تطلع الشمس من مغرب يوم القيامة ، فإن لم يتب إلا عند ذلك لم يتب الله عليه أى يعاقبه إن كان كافرا ، وأما إن كان عاصيا بغير الكفر فأمره مفوض إلى ربه ، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه . قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء ١٨،١٧] وقال النبى ﷺ « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [1] وقال « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [2] . وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء : ٤٨] .

---

١ - رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

٢ - رواه مسلم .

وقال تعالى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

بعد هذا نقول: إن مخالفة إبليس لله كانت كفرا من وجهين أحدهما: أنه، رفض أمر الله وتكبر. وثانيهما: أنه نسب الجور والظلم لله بتفضيل آدم عليه والسجود له ثم إنه أصر على العناد ولم يتب، بل لم يفكر فى التوبة، وطلب من الله أن يطيل عمره إلى يوم القيامة حتى يثأر من آدم وذريته، ويحارب الله بعنف حتى يصرف الناس عن شكره والإيمان به، ولهذا طرده الله من رحمته طردا أبديا، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤] وقال تعالى ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] وقال تعالى ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٧، ٧٨].

ومن هذا نرى أن معصية إبليس كانت كفرا، وأصر عليها ولم يتب، بل لم يفكر فى التوبة، فكان الجزاء طرده من رحمة الله إلى الأبد.

أما ما وقع من سيدنا آدم فليس كفرا، لأنه لم يرفض التكليف بعدم قربان الشجرة، بل قبله ودخل الجنة وتمتع بنعيمها ولم يقرب الشجرة أولا، ولم يكن عنده عزم على مخالفة أمر الله، وشاءت إرادة الله أن يكون آدم أول ضحية لإبليس فى تنفيذ مخططه الذى أقسم عليه، فنسى آدم عهد الله له بعدم طاعة الشيطان، وصدق إبليس فى حلفه بالله أن من الخير له أن يأكل من الشجرة، وبحسن الظن أكل هو وحواء منها، وعندما شعرا بآثار المخالفة وبدت لهما سوآتهما تنبها إلى مخطط الشيطان.

وبعد عتاب من الله لهما وتذكيرهما بعهده ألهمهما كلمات قالاها مقرين فيها بارتكاب ما يضر، طالبين عفو الله ومغفرته، فقبل منهما التوبة. قال تعالى ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه : ١١٧] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه : ١١٥] أى لم يعلم الله لهما عزما على المعصية حين أخذ العهد عليهما، لأن العزم كان غير موجود، أو لم يعلم عزما أى قوة على المقاومة لإغراء الشيطان وتصديقه فى حلفه بالله أنه

ناصح لهما . وقال تعالى ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف : ٢٢] وقال تعالى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] وهذه الكلمات هى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

من هذا نعرف أن مخالفة آدم كانت نسيانا ولم تكن كفرا ، والنسيان وإن كان الله لا يؤاخذ على آثاره رحمة بعباده ، إلا أن الله سمى ما وقع من آدم معصية لأنه على صورتها ، ولأن مقام آدم ليس كمقام بقية الناس ، وكما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

س . ما هى الأرض التى هبط عليها أبونا آدم ، ومتى وكيف تم ذلك ، وهل دفن فى الأرض وفى أى مكان يوجد قبره ؟

ج : القرآن الكريم لم يقص علينا من أخبار السابقين إلا ما فيه العبرة والموعظة فقط ، وذلك من أسرار بلاغته التى يراعى فيها مقتضى الحال ، ولا حاجة إلى سرد التفاصيل والجزئيات التى لا يضر الجهل بها ، ويترك للناس البحث عنها تنشيطا للفكر وازديادا فى الثقافة .

وقد ذكر القرآن بعض قصص الأنبياء ، وسلط الأضواء على جوانب منها حتى مع تكرار ذكر القصة الواحدة فى عدة مواقع ، اقتضاه نزول القرآن منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما ، قال تعالى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : ١٢٠] وقال ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف :١١١] .

وبخصوص سيدنا آدم ذكر القرآن أن الله أهبطه إلى الأرض ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف : ٢٤] وقال من

قبل ذلك للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] ولم يبين المكان الذى هبط عليه من الأرض ، وذلك لعدم الحاجة إليه ، وقد استغل بعض الناس هذا الأمر استغلالا سياحيا أو لمصالح أخرى فادعوا أنه هبط على أعلى قمة فى جبل بالهند بجزيرة سريلانكا «ميلان سابقا» وأن قدمه أثرت فى الصخر ومشى هناك خمسمائة سنة يبكى على هابيل وتكونت من دموعه ودموع حواء عين ماء ، والناس يتوافدون على المكان لزيارته ، كما استغلت مناطق أخرى لهذا الغرض .

ومما يشاع أنه هبط فى مكان وحواء فى مكان آخر هو جدة وبعد بحث وتعب التقيا على جبل عرفات فسمى بهذا الاسم لهذا السبب ، كما يقال : إنه دفن فى جزيرة العرب وله قبر طوله ستون ذراعا ، ولكن كل ذلك لا يدل عليه دليل صحيح ، وبخاصة أن آلاف السنين مرت عليه ، والآثار التى مر عليها أقل من ذلك ما زال كثير منها مجهولاً ، وبالطبع دفن آدم فى الأرض بعد موته ، لأن قابيل لما قتل أخاه هابيل واحتار فى أمره بعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه. فدفنه فى حفرة فى الأرض ، وكان ذلك سنة متبعة فى ذريته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة:١ ،٢] وهم الموتى فى القبور.

هذا ، وقد ذكر الزرقانى فى شرحه للمواهب للقسطلاني [1] أن آدم مات بمكة يوم الجمعة ودفن فى قبر بغار أبى قبيس كما ذكره الثعلبى وغيره ، وعن ابن عباس أن آدم بعدما حج عاد إلى الهند ومات بها ، وعن ثابت البنانى أنهم دفنوه فى «سرنديب» فى الموضع الذى أهبط فيه ، وصححه الحافظ ابن كثير . وقيل : دفن بين بيت المقدس ومسجد إبراهيم ، وقيل غير ذلك ، وعاشت حواء بعده سنة وقيل ثلاثة أيام ودفنت بجنبه .

وكل ذلك كلام ليس عليه دليل صحيح .

وبعد ، فإذا كنت تسأل أيها السائل عن قبر أبينا آدم لتزوره وتترحم عليه فخير من ذلك ألف مرة أن تسير على النهج الذى رسمه له ربه عندما أهبطه إلى الأرض

١- ج ١١ ص٦٤ .

حيث قال ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

س . يقول الله سبحانه ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٨٩، ١٩٠]

كيف يشرك آدم وحواء بسبب الذرية ؟

ج : التفسير المناسب لنفى الشرك عن آدم وحواء هو أنه لما تغشاها شعرت بالحمل أول الأمر خفيفا ، فاستمرت فى حياتها العادية لا تعانى تعبا ، حتى إذا ثقل الحمل دعوا الله أن يشكراه إن ولد لهما نسل صالح ، فرزقهما الله ولدين صنفين ، ذكرا وأنثى ، وباستمرار عملية الإنجاب وتكاثر الذرية وتعاقب الأجيال وتباعد العهد بالرسالات نسى بعض الصنفين فضل ربهما فى الخلق والإنعام ، فجعلا له شركاء فيما آتاهما ، وعبداها من دون الله ، أو لتقربهما إليه زلفى كما فعل كفار مكة عند ظهور الإسلام ، وهم المقصودون بهذه الآيات كما قاله أكثر العلماء .

وبهذا التفسير الذى يتفق مع أسلوب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، من عود الضمائر أحيانا على اللفظ ، وأخرى على المعنى ، يستقيم معنى الآية ويتلائم مع ما يجب للأنبياء من عصمة .

ذكر السيوطى فى الإتقان [1] أن الآية فى آدم وحواء كما جاء مصرحا به فى حديث أخرجه أحمد والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه . وقال : كيف نسب الإشراك إليهما وآدم نبى والأنبياء معصومون منه قبل النبوة وبعدها إجماعا؟ وقد جر ذلك

---

١ - ج١ ص ٩٠ .

إلى أن بعض العلماء حمل الآية على غير آدم وحواء ، وتعدى ذلك إلى تعليل الحديث والحكم بنكارته ، وذكر أن آخر الآية كان فى العرب وشركهم ، حيث عاد الضمير فى أولها على الاثنين ، وفى آخرها على الجمع ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولابد من حمل التعبيرات المتشابهة على ما لا يطعن فى عصمة الأنبياء .

س : فى قصة نوح عليه السلام قول الله له ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود :٦٠] نريد توضيحا لذلك ؟

ج : معروف أن نوحا عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، وكان ممن كفروا به زوجته وابن من أبنائه وبعد صنع السفينة وحمل من آمن فيها وحصول الطوفان وبعد أن نهى الله نوحا أن يتشفع للكافرين مهما كانت صلة القرابة به ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٧] حدث أن رأى نوح ولده يغرق وظن أنه من المؤمنين حيث لم يصرح له بالكفر ، فدعاه إلى الركوب في السفينة ، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود : ٤٢] فقد قال ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل من الكافرين . لأنه لو علم بكفره ما ناداه للركوب . وكان رد ولده غير صريح فى إعلان الكفر ، بل فيه اعتماد على نفسه وقوته وحيلته التى يمكن أن ينجو بها من الغرق ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فرد عليه أبوه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وكانت النتيجة أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين .

ولعدم علم نوح يقينا بكفر ولده سأل ربه مستوضحا لماذا أُغرق فقال ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود : ٤٥] فرد الله عليه بأنه ليس من أهله المؤمنين في الحقيقة وإن كان يبدو له أنه مؤمن ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ والمعنى أن القرابة المنجية من العذاب هى قرابة الإيمان لا قرابة النسب ، وكان عليك أن

تتحرى حال ولدك وهو يعيش معك أو قريبا منك لتتأكد من إيمانه ، فإن مقامك غير مقام عامة الناس ، وليس قوله له ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وصفا له أنه جاهل ، بل تحذير له أن يكون فى المستقبل جاهلا ، كما قال الله لسيدنا محمد فلا ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام : ٣٥] وقوله ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص :٨٧] فلم يكن النبى جاهلاً ولا مشركًا حين خاطبه الله بذلك ، وعلى هذه الصورة كان نوح عليه السلام بريئاً مما يخالف عصمة الأنبياء .

س : جاء قوله تعالى على لسان النبي نوح ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح :٢٦] فلماذا قال نوح «الأرض» ولم يخص قومه الذين عصوه، وهل نوح هو الأب الثاني للبشر؟ وكم كان عمره ، وكيف خانته زوجته ؟ .

ج : كان العمران محدوداً في أيام نوح عليه السلام ، ولعل الذين أرسل إليهم كانوا هم الذين يعيشون على الأرض في هذه المنطقة ، فلما دعا عليهم ظن أو اعتقد أنه لا يوجد غيرهم على الأرض . وهم أيضاً قومه كما قال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٥]

وقال بعض العلماء : إن الأرض المذكورة في دعاء سيدنا نوح قد يراد بها المنطقة التي أرسل فيها دون غيرها ، فكلمة «ال» للعهد كما يقول علماء اللغة . وقالوا : إن الطوفان أهلك كل إنسان كافر ، وعمرت الأرض بعد ذلك من سلالة المؤمنين الذين ركبوا السفينة معه ونجوا من الغرق ، وبهذا يقال : إنه الأب الثاني للبشر بعد آدم عليه السلام وذلك ما نقل عن ابن عباس من أن نوحاً هو آدم الأصغر ، وأن جميع الخلائق الآن من نسله [1] .

أما عمر سيدنا نوح ، فقد اختلفت فيه الأقوال عند تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ١٤] فمن المؤكد أنه عاش ألف سنة إلا خمسين عاما ، فهل هذه المدة هي كل عمره الذي عاشه من يوم ولادته إلى وفاته ، أو هي التي عاشها في الدعوة

---

١ - تفسير القرطبي ج٩ ص ٤٨ .

ويضاف إليها السنوات التي قبلها ، وهي حوالي أربعين سنة ، حيث كان الرسل يبعثون في هذه السن ، ثم يضاف إليها أيضا المدة التي عاشها بعد الطوفان ولا يعلم كم هي؟ ليس هناك دليل قاطع على عمره ، ولا داعي للانشغال به ، فقد مات كما يموت كل حي ، ولم يخلد في الدنيا على الرغم من عمره الطويل .

وفي تفسير القرطبي في سورة العنكبوت معرض لآراء كثيرة في عمر نوح ليس على أي واحد منها دليل صحيح ، وأورد حديثا بصيغة التمريض أي التضعيف أن عمره كان عند البعثة مائتين وخمسين سنة ، وعاش بعد الطوفان مثلها ، يضم إلى ذلك ما نص عليه القرآن وهو تسعمائة وخمسون سنة ، فيكون المجموع ألف سنة وأربعمائة وخمسين سنة وكل ذلك استنتاج لا دليل عليه .

أما زوجته فقد قال الله فيها ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [سور التحريم : ١٠] .

فما هي الخيانة التي صدرت من كل منهما مع أن كلا منهما زوجة نبي؟

أحسن ما قيل في خيانتهما أنها الكفر بالرسالة والتواطؤ مع الكفرة ، وحاشا أن تكون الخيانة في العرض والشرف كما قال ابن عباس رضي الله عنهما . والمستبعد أن تكون [عجوز] كما وصفها الله تخون لوطاً بالفاحشة .

هذا ، وكون زوجة نبي كافرة لا يقدح في عصمته هو ولا يمس شرفه ، فكل امرئ بما كسب رهين ، كما لا يضر المسلم أن تكون زوجته كتابية لا تؤمن بدينه .

س : أين مكان الأرض التى وقع بها الطوفان فى عهد سيدن نوح ، وما مدى صحة ما يقال عن أبنائه حام بأنه أب لكل الأفارقة ،وسام أب كل عبري وعربى ، ويافث أب كل الأتراك ؟

ج : الأرض التى وقع عليها الطوفان فى عهد نوح عليه السلام هى أرض العراق وهناك مكان يزعم الناس أنه المنطقة التى بلعت الماء حين قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [هود : ٤٤] .

وأما أبناؤه فليس فيهم خبر صحيح فى القرآن والسنة ، وقد ذكر القرطبى فى تفسيره [1] ما نصه : ذكر النقاش عن سليمان بن أرقم عن الزهرى أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح ، والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح ، والترك وبربر ووراء الصين ، يأجوج ومأجوج والصقالبة ، كلهم من ولد يافث بن نوح ، والخلق كلهم ذرية نوح .

فهذا الكلام ليس حديثا مرفوعا إلى النبى ﷺ وما ذكر ليس عقيدة نحاسب عليها.

س : قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم : ٥٦ ،٥٧] فما هو الأمر الذي بسببه رفعه الله إليه ، وأين مكانه ، ولماذا لم يرفع غيره من الأنبياء؟

ج : قال المفسرون : إن الرفع فى الآية إما رفع مكان وإما رفع مكانة ، وقد رفع الله إدريس عليه السلام إلى السماء الرابعة كما قال كثير منهم ، وقيل إن الرفع هنا هو رفع منزلة وقدر وشرف . وكل الأنبياء مرفوعة منزلتهم .

وسبب الرفع لم يرد به خبر صحيح ، وهي أقوال منسوبة لابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهم ، منها أنه لما أصابه وهج الشمس تعجَّب كيف يتحمله الملك الذي يحمل الشمس وسأل ربه أن يخفف عنه ، فلما علم الملك بذلك أراد أن يكافئ إدريس ، فجمع الله بينه وبينه ، وطلب إدريس منه أن يشفع له عند ملك الموت ليؤخر أجله .

وقيل طلب منه أن يريه الجنة فرفعه إلى السماء الرابعة فقبض ملك الموت فيها روحه ورفعها إلى الجنة ودفنت جثته في السماء الرابعة ، وقيل غير ذلك .

---

١ - ج ٧ص ٢٣٣ .

وفى حديث الإسراء جاء فى رواية مسلم أن النبي ﷺ وجد إدريس فى السماء الرابعة .

تحدث القرطبى فى تفسيره [1] عن كلام ابن وهب فى مقابلة ملك الموت لإدريس وإدخاله الجنة وأمر الله له أن يخرج منها ، وقال : إنه حى هناك تارة يرتع فى الجنة ، وتارة يعبد الله مع الملائكة فى السماء . كما ذكر القرطبى أنه أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب وسيرها ، قال بعض المحققين : إنه نشأ ودعا إلى التوحيد فى منطقة أسوان جنوبي مصر .

وذكر القسطلانى فى المواهب اللدنية والزرقانى فى شرحها [2] ما نقل عن كعب الأحبار أن إدريس توفى فى السماء الرابعة ولم تكن له تربة فى الأرض، وقال ابن المنير ، اختلف فى إدريس هل رفع إلى السماء بعد موته كغيره من الأنبياء ، أو إنما رفع حيا وهو إلى الآن حى كعيسى ، وكل ذلك من الإسرائيليات والله أعلم بصحتها ولم يثبت رفعه وهو حى من طريق مرفوعة قوية .

وجاء فى « مشارق الأنوار للعدوى» [3] أن العلماء اختلفوا على أنه حى فى السماء أم ميت فقال قوم هو ميت ، وقال قوم : هو حى ، وقالوا : أربعة من الأنبياء أحياء، منهم في الأرض اثنان وهما الخضر وإلياس عليهما السلام ، واثنان فى السماء وهما عيسى وإدريس ، كما ذكره الخازن فى تفسيره .

وكل هذه أخبار غير موثقة من قرآن أو حديث صحيح ، ولا يجب علينا أن نؤمن إلا بأن إدريس عليه السلام من الرسل وأن الله رفع منزلته ، وما وراء ذلك من كونه فى السماء الرابعة حيا أو ميتا لا نلزم باعتقاده .

١- ج ١١ ص ١١٩ . ٢- ج ٦ ص ٧١ .
٣- ص ١٤ .

س : هل آزر هو أبو إبراهيم عليه السلام أو عمه ، وكيف يكون كافرا ونسب النبى ﷺ كله طاهر لقوله تعالى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩]؟

ج : نص القرآن الكريم على أن أبا سيدنا إبراهيم عليه السلام اسمه آزر ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام :٧٤] ونص على أنه مات كافرا على الرغم من وعد إبراهيم أن يستغفر له ربه قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

وقيل : إن آزر عم إبراهيم وليس والدا له ، والعم يطلق على اسم الأب ، كما فى قوله تعالى عن يعقوب ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] مع أن إسماعيل ليس ولداً ليعقوب ولكنه عمه ، والذى حمل هؤلاء على القول بأن آزر عم إبراهيم وليس والده هو تشريف مقام النبوة أن يكون أحد آباء الأنبياء كافراً ، مستندين فى ذلك إلى قول الله للنبي ﷺ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩] وقول الرسول ﷺ «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» [1] .

فقال هؤلاء : إن الكفر نجس لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨] فكيف ينقل الرسول من أصلاب الطاهرين وآزر أبو إبراهيم نجس ؟ وكيف يكون تقلبه فى الساجدين وآزر ليس منهم ؟

ورد على ذلك : بأن إرادة العم من الأب عدول عن الظاهر بلا مقتض ، والنصوص المذكورة فى الطهارة والسجود لا تقتضى هذا العدول ، لأن آية ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ليست نصا فيما فسرها به ابن عباس ، فقد فسرت بغير ذلك ، فقد جاء عنه أيضاً أن المعنى : يراك قائما وراكعا وساجداً ، لأن قبل ذلك ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وبأن حديث النقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة أولاً لم يصل إلى الدرجة

---

١ - رواه أبونعيم عن ابن عباس ، وقال ابن عباس في المراد بالساجدين «من نبى إلى نبى» كما رواه أبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح والطبرانى برجال ثقات .

التى يعتمد عليها فى العقائد ، وثانيا فسرت الطهارة فيه بعدم السفاح كما رواه أبونعيم عن ابن عباس مرفوعا « لم يلتق أبوای قط على سفاح ، لم يزل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مُصَفًّى مهذبا» وكما رواه الطبرانى عن على مرفوعا « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يصبنى من نكاح الجاهلية شيء » .

هذا ، ولا يضير أن يكون فى أنساب الأنبياء كافرون ، فكل امرئ بما كسب رهين ، وقصة آزر ونسب النبى ليست عقيدة نحاسب عليها ، وهى متصلة بقوم مضوا إلى ربهم وهو أعلم بهم ، فَلنَهتم بحاضرنا لنصلحه ، وبمستقبلنا لنستعد له .

س . جاء على لسان إبراهيم عليه السلام أنه قال لرب العزة ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة : ٢٦٠] فلماذا سأل إبراهيم هذا السؤال ، هل كان شاكا فى قدرة الله ، وما هى الصلة بين الإيمان والاطمئنان؟

ج : قال المفسرون : إن هذا القول لم يصدر عن إبراهيم عليه السلام عن شك فى قدرة الله على إحياء الموتى وإنما طلب المعاينة ، فليس الخبر كالعيان .

وقال الأخفش : لم يرد رؤية القلب ، وإنما أراد رؤية العين . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : سأل ليزداد يقينا إلى يقينه .

كل ذلك لاعتقادنا فى عصمة الأنبياء عن كل ما يؤثر على الطاعة لله والإيمان الصادق به .

لكن جاء فى حديث البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال «نحن أحق بالشك من إبراهيم . . . .» وأجيب عنه بأن معناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ، ونحن لانشك فإبراهيم أجدر ألا يشك ، لأنه مؤمن بإحياء الله للموتى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

فهو مؤمن بذلك ويطلب رؤية الكيفية ليزداد يقينا ، أى يريد الترقى من علم اليقين إلى حق اليقين كما يعبر بعض العلماء .

س : صح فى حديث الشفاعة يوم القيامة أن إبراهيم امتنع عنها لأنه كذب على ربه ثلاث مرات ، فما هي هذه الكذبات وكيف يتفق ذلك مع عصمة الأنبياء؟

ج : روى البخارى ومسلم حديث الشفاعة وطلب الناس من إبراهيم عليه السلام أن يشفع لهم فامتنع وقال «إنى كذبت ثلاث كذبات» وهى قوله عندما سأله عمن كسر الأصنام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله عندما نظر في النجوم ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله عن زوجته سارة إنها أخته . وأجاب العلماء عن الأولى بأن إبراهيم لم يكذب ، بل أثبت أنه صادق ولكن بطريقة غير مباشرة ، أو كان صدقه قضية تحمل معها دليلها، فلو كنت أنت مثلا خطاطا ماهرا ولا يجيد الكتابة أحد غيرك ، ثم سألك شخص أمى غير مجيد للكتابة وقال لك : أأنت كتبت هذا؟ فقلت له باستهزاء : بل أنت الذى كتبته ، فالغرض هو إثبات الكتابة لك مع استهزائك بالسائل الذى ما كان ينبغي أن يوجه هذا السؤال الظاهر البطلان . ولذلك لما أجابهم إبراهيم عليه السلام بأن الذى كسر الأصنام هو كبيرهم رجعوا إلى أنفسهم يتهمونها بالغباء ، لاعتقادهم ألوهية من لايتكلم ولا يسمع ولا يبصر ، ولا يرد عن نفسه كيدا ، ولكن العناد جعلهم يتمادون فى مجادلته وتكذيبه . ولجئوا أخيرا إلى التهديد باستعمال القوة والعنف ، وهو سلاح كل عاجز عن الاستمرار فى المحاجة المنطقية .

وأجابوا عن الثانية وهى قوله : ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ بأنه كان بالفعل سقيما ، وسقمه نفسى ، وذلك من تماديهم فى الباطل على الرغم من قوة الحجة ، كما قال الله تعالى فى حق سيدنا محمد ﷺ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف : ٦] فقد أوهمهم إبراهيم أنه سقيم الجسم على ما كانوا يعتقدون

من تأثير الكواكب فى الأجسام وهو فى الوقت نفسه سقيم النفس . وهذا الأسلوب من المعاريض التى فيها مندوحة عن الكذب .

وأجابوا عن الثالثة وهى وصف زوجته بأنها أخته - بأنه صادق فى هذا الوصف لأنها أخته فى الدين كما جاء فى صحيح الروايات ، وذلك ليخلصها من ظلم الجبار روى مسلم [1] أن رسول الله ﷺ قال «لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ، ثنتين فى ذات الله : قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار [2] ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختى ، فإنك أختى فى الإسلام ، فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك . فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففلعت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال له : إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان ، فأخرجها من أرضى وأعطها «هاجر» قال : فأقبلت تمشى فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها «مَهيم» ؟ قالت : خيرا ، كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً» قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

ومعنى «مهيم» ما شأنك وما خبرك ؟ ومعنى «أخدم خادما» أعطانى جارية تخدمنى وهى هاجر ، والخادم يقع على الذكر والأنثى ، والمراد «بماء السماء» العرب

---

١ - ج ١٥ ص ١٢٣ بشرح النووى .

٢ - هذا الجبار مُختَلف فيه ، فقيل : هو عمرو بن امرئ القيس بن سبأ وكان على مصر كما ذكره السهيلي ، وهو قول ابن هشام في التيجان ، وقيل : اسمه صادق وكان على الأردن ، كما حكاه ابن قتيبة ، وقيل : سنان بن علوان ... بن سام بن نوح ، حكاه الطبري ، وقيل : إنه الضحاك الذي ملك الأقاليم .

كلهم لخلوص نسبهم وصفائه ، وقيل :إن أكثرهم أصحاب مواش وعيشهم من المرعى والخصب وما ينبت بماء السماء ، وقيل : !لمراد بهم الأنصار نسبة إلى جدهم «الأدد» وكان يعرف بماء السماء .

جاء فى شرح النووى لهذا الحديث أن المازرى قال : إن الكذب الذى يعصم منه الانبياء هو الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله تعالى ، أما فى غير ذلك ففى إمكان وقوعه منهم وعصمتهم منه القولان المشهوران للسلف والخلف ، وذكر أن ما قاله إبراهيم عن سارة تورية وهى جائزة ، وليست كذبا ، ولو كان كذبا لكان جائزا فى دفع الظالمين ، فقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفيا ليقتله أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصب وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به ، وهذا كذب جائز بل واجب لكونه فى دفع الظالم ، ثم نقل عن المازرى قوله : لا مانع من إطلاق الكذب على ما حدث من إبراهيم كما أطلقه النبى ﷺ ومع ذلك فالتأويل صحيح لا مانع منه .

ثم حمل قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على أنه سيسقم لأن الإنسان عرضة للسقم ، وأراد به الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم وشهود باطلهم وكفرهم ، وقيل : سقيم بما قدِّر عليَّ من الموت ، وقيل : كانت تأخذه الحمى في ذلك الوقت .

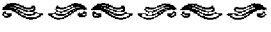

س : من الذى أمر الله إبراهيم بذبحه من أولاده ، هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

ج : قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات:١٠١-١١٣] وقال عند الكلام عن الملائكة لما جاءت إبراهيم بالبشرى ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقال في موضع آخر ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

روى الحاكم فى المستدرك عن معاوية بن أبى سفيان قال: كنا عند رسول ﷺ فأتاه أعرابى فقال: يا رسول الله، خلَّفت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال وضاع العيال، فَعُدْ عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين.. قال: فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه[1].

وجاء فى كتب السيرة أن عبد المطلب نذر إن رزقه الله عشرة بنين ليذبحن أحدهم قربانا لله، وذلك عندما منعته قريش من حفر زمزم ولم يكن معه إذ ذاك إلا ولده الحارث، وعندما رزق بالبنين وأراد أن يوفى بنذره جاءت القرعة على عبد الله «والد النبى ﷺ بعد» حتى افتدى أخيراً بمائة من الإبل، ولهذا روى أن النبى ﷺ قال«أنا ابن الذبيحين» أي إسماعيل الذي أمر الله أباه إبراهيم بذبحه، وعبد الله والده، الذي كان سيذبح.

إزاء هذه المرويات اختلف العلماء فى الذبيح الأول هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

الجمهور على أن الذبيح إسماعيل، ومما يؤيد رأيهم ما يأتى:

١- أن إبراهيم عليه السلام لما أنجاه الله من النار وهاجر من أرض العراق إلى الشام ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] ولما تقدمت به السن ولم ينجب طلب من ربه أن يهب له ولدا فاستجاب الله له ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١] وكان هذا الغلام من هاجر المصرية وهو بالشام، وهو إسماعيل، ولما لم تنجب زوجته الأولى دخلت الغيرة قلبها فأمره الله أن يبعد عنها هاجر وولدها، فأسكنهما فى موضع مكة، وامتحنه بذبحه لما بلغ معه السعى وكان ذلك الامتحان فى مكة.

١- وقد ذكره الزمخشري في الكشاف، وقال الزيلعي في تخريج أحاديثه: غريب.

أما ابنه إسحاق فجاءت البشارة به بعد أن بشره الله بإسماعيل ، كما تدل عليه الآيات التى ذكرت الرؤيا والبدء فى الذبح ثم افتداء الله إسماعيل بذبح عظيم ، وانتهت بمدح إبراهيم ثم ذكرت البشارة بإسحاق .

والامتحان يكون بذبح الابن البكر الذى جاء بعد شوق طويل ، لا بالولد الثانى الذى لا يصل حبه إلى ما وصل إليه حب الأول .

٢- وأن إبراهيم عاش سلسلة من الامتحانات أكثرها يتصل بهاجر وولدها إسماعيل ، حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع ، مسلماً أمرهما إلى الله ، يعيش بعيدا عنهما فى الشام ، ويزورهما على فترات ، ثم يتصاعد الامتحان بأن يرى فى المنام أنه يذبح فلذة كبده ، وما ذلك إلا إسماعيل ، ولنتصور حال إبراهيم لو تم الذبح كيف يترك هاجر وحيدة فى مكان ليس فيه من الأنس ما فى الشام حيث يستقر به المقام، إن سلسلة هذه الامتحانات المترابطة تؤكد أن الذبيح هو إسماعيل .

٣- وأن هناك اختلافا فى الظروف التى بُشِّر بها إبراهيم بكلا ولديه إسماعيل وإسحاق فالبشارة بإسماعيل كانت عند هجرته من أرض العراق وبطلب من الله أما البشارة بإسحاق فكانت عندما جاءته الملائكة فى طريق مرورها إلى قوم لوط ، وهى فترة كان فيها إسماعيل مع أمه هاجر بعيدين عن البيت ، الذى لم يكن فيه إلا سارة التى عجبت أن يولد لها وهى عجوز عقيم وبعلها شيخ كبير، ولم يكن هناك طلب منهما لهذا الولد والامتحان بذبح من طلبه وتشوق إليه امتحان أشد .

٤- أن الشروع في ذبح إسماعيل صاحبته أحداث تدل على أنه هو المقصود بالذبح وليس إسحاق ، ذلك أن الروايات تقول : إن إبراهيم أخذ ولده وخرج به من البيت ليذبحه بعيدا عن أمه فلقيهما الشيطان فى الطريق وسول لهما عدم الاستجابة، فرجمه إبراهيم فى أكثر من مكان ، ومنه كانت شعيرة رمى الجمار من شعائر الحج ، وذلك فى مكة وليس فى الشام .

٥- عندما بشر الله إبراهيم وسارة بإسحاق عن طريق الملائكة ، جاء فى البشارة ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود : ٧١] يعنى أن إسحاق سيولد ويكبر ويتزوج ويولد له يعقوب ، فهل يعقل بعد الاطمئنان على حياة إسحاق أن يذبحه أبوه؟ إنه لو ذبحه فمن أين يكون يعقوب ؟ هذا دليل قوى على أن الذبيح هو إسماعيل.

٦- أن البشارة بإسماعيل وصفته بأنه غلام حليم ، أما البشارة بإسحاق فوصفته بأنه غلام عليم ، وصفة الحلم تتناسب مع من أطاع أمر ربه وصدق رؤيا أبيه فلم يغضب ولم يعص ، وهو إسماعيل . وصفة العلم غالبة فى نسل إسحاق ويعقوب وبنى إسرائيل .

٧- أن النبى ﷺ سئل عن الأضاحى فقال «سنة أبيكم إبراهيم» [1] وأبو العرب هو إسماعيل بن إبراهيم ، وليس إسحاق بن إبراهيم ، كما هو معروف والقرابين كانت تذبح فى مكة وليس فى الشام استجابة لدعوة إبراهيم ربه ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج : ٢٧-٢٩].

٨- أن أهل الكتاب يقولون : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وما كان له ابن وحيد إلا إسماعيل ، فإن إسحاق لا يقال له وحيد حيث كانت ولادته بعد ولادة إسماعيل ، فقد نصت كتبهم على أن إسماعيل ولد ولإبراهيم ست وثمانون سنة ، وأن إسحاق ولد ولإبراهيم تسع وتسعون سنة . فأول ولد بشر به هو إسماعيل، والوحيد الذى أمر بذبحه هو أيضاً إسماعيل . وهو البكر كما عبر عنه في بعض نسخهم ، فأقحموا ها هنا كذبا وبهتانا اسم إسحاق لأنه

١- رواه أحمد وابن ماجه .

أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم ، ذكر هذا ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ .

٩- أن كبار العلماء من السلف قالوا : إن الذبيح هو إسماعيل كما روى ذلك عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس ومجاهد عن ابن عمر ، والشعبى يقول : رأيت قرنى الكبش فى الكعبة (كذا) وعمر بن عبد العزيز استدعى يهوديًّا بالشام أسلم وحسن إسلامه فشهد بأن الذبيح إسماعيل . وأبو عمرو بن العلاء سأله الأصمعى عن الذبيح فقال له : أين ذهب عقلك ، متى كان إسحاق بمكة ؟ إنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

يقول الآلوسى بعد أن ساق أقوال العلماء فى ذلك : والذى أميل إليه أن الذبيح إسماعيل لأنه المروي عن كثير من أئمة أهل البيت ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوي الألباب .

ها هو ما أثير حول هذا الموضوع لخصته من كتب السيرة ، ومن زاد المعاد لابن القيم وغيره من المصادر ، ينتهي إلى أن الذبيح هو إسماعيل ، وما سبق في ذلك هو اجتهادات واستنباطات يؤيدها حديث الحاكم عن معاوية بعدم إنكار الرسول ﷺ على من ناداه بابن الذبيحين ، كما يؤيدها ما روى عنه ﷺ من قوله «أنا ابن الذبيحين».

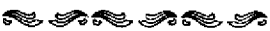

س : من أين جاء الكبش الذي فدى الله به إسماعيل ، ومن الذى أكله بعد الذبح ولِمَ لَمْ يذبح إبراهيم لابنه جملا أو بقرة ؟

ج : قال تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام عندما شرع فى تنفيذ الرؤيا بذبح ولده إسماعيل ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠٧] .

أغلب أقوال المفسرين أن الذبح كبش من الضأن ، واختلفت آراؤهم فى مصدره ، فقيل : إنه من الجنة ، وذكروا أنه القربان الذى قدمه هابيل بن آدم عليه السلام ، فتقبله

الله منه ورفعه وأدخله الجنة يرتع فيها ، وقيل : إنه كبش من كباش الجبال ، هبط على إبراهيم فذبحه وقيل غير ذلك .

وكلها أقوال ليس لها دليل يعتمد عليه من كتاب أو سنة ، وكونه ذبحا عظيما لايدل على سمنه وكثرة لحمه ، لأن العِظَم قد يطلق على الشرف والأهمية ، وبالطبع هذا الكبش له أهميته لأنه فداء لشخصية عظيمة هى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأما لحم الذبح فلا يدل دليل على أنه رفع وأكلته النار كالقرابين فى العصور السابقة أو أكله سيدنا إبراهيم وأهل بيته ، أو أعطاه غيرهم من الناس ، أو تركه للوحوش والطيور .

وإذا لم يدل دليل على أصل الكبش ولا على أكله فالظاهر -كالمعتاد- أن الكبش من غنم الأرض وأن إبراهيم أكل منه وتصدق على غيره شكراً لله على فداء إسماعيل ، شأن الأضحية فى الإسلام التى قال فيها النبى ﷺ «سنُّوا بها سنة أبيكم إبراهيم» .

وأنبه إلى أن القرآن لا يهتم بذكر التفاصيل الجزئية اهتمامه بموضع العبرة والموعظة وإبراهيم لم يذبح جملا ولا بقرة ، لأنه كان لا يعرف فداء ولده ، ولكن الله هو الذى نبهه إلى ذلك على ما يفهم من ظاهر التعبير ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فهو توجيه من الله سبحانه ، والواجب هو الاتباع .

س : من هم أخوة يوسف الذين سجدوا له وماهى الكواكب التى رآها وكيف كان السجود ليوسف ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾[يوسف : ٤] ويقول : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾[يوسف : ١٠٠] .

فى هاتين الآيتين ثلاث نقاط : الأولى : أسماء الكواكب وكيف سجدت ، والثانية : عدد إخوة يوسف وأسماؤهم ، والثالثة : كيف يسجدون لمخلوق والسجود لا يكون إلا لله ؟

١- أما أسماء الكواكب فلا يعنينا معرفتها ، لأن المقصود هو العبرة والموعظة ومع ذلك قال القرطبي في تفسيره ، إن أسماءها جاء ذكرها مسندا ، رواه الحارث ابن أبى أمامة قال : جاء بستانه - وهو رجل من أهل الكتاب - فسأل النبى عنها فقال «الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والصروح وذو الكنفات وذو القرع والغليق ووثاب والعمودان» والله أعلم بصحة هذا الحديث ، كما أن بعض الأسماء مختلف فى نطقها ، ولا يهمنا كل ذلك كما أن كيفية سجودها غير معلومة بطريق صحيح ، ويكفى أن يكون بأدنى قرب منه .

٢- أما إخوة يوسف فأحد عشر ، وهو : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويشجر ودان ونفتالى وجاد وآشر وبنيامين ، والنطق مختلف عما فى التوراة وفى كتب أخرى وذلك أيضا غير مهم .

٣- أما سجود أخوته له فكان سجود تحية وليس سجود عبادة بالاتفاق عند جميع العلماء ، كما سجد الملائكة لآدم ، وكان ذلك من عرفهم والأعراف مختلفة ، وما زال الانحناء والانبطاح على الأرض إلى حد تقرب فيه الجبهة من الأرض تحية فى بعض الشعوب إلى اليوم ومنها شعوب إسلامية ، والإسلام لا يوافق على التحية بالسجود ، وقد نهى النبى ﷺ من أراد أن يسجد له كما يفعل مع الملوك ، وذكر القرطبي حديثا خرَّجه أبو عمر فى التمهيد عن أنس قال : قلنا: يا رسول الله أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال «لا» قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضاً ؟ قال «لا» قلنا : أيصافح بعضنا بعضا ؟ قال «نعم» .

س : من هم إخوة يوسف ، وهل هم أنبياء ، وكيف يجوز منهم أن يدبروا المكيدة لأخيهم ويكذبوا على أبيهم ؟

ج : جاء فى تفسير القرطبي [1] أن إخوة يوسف هم :

١- ج ٩ ص ١٣٠ .

١- روبيل وهو أكبرهم ٢- شمعون ٣- لاوي ٤- يهوذا ٥- زيالون

٦- يشجر وأمهم ليًّا بنت ليان ، وهي بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر هم :

١- دان ٢- نفتالى ٣- جاد ٤- آشر ثم توفيت ليًّا فتزوج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين . فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا .

ثم ذكر القرطبي [1] : أن أخوة يوسف ما كانوا أنبياء ، **لا أولا ولا** آخرا، لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين فارتكبوا **معصية** ثم تابوا . وقيل : ماكانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ، وهذا أشبه .

هذا ، وفى مقال للدكتور كارم السيد غنيم بمجلة الهداية -رمضان ١٤٠٩هـ- أن يعقوب تزوج من بنتى خاله «ليا ، راحيل» ومنهما ومن أمتيهما أنجب اثنى عشر ولدا ذكرا هم الأسباط ، وأسماؤهم : راوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، بساكر ، زبولون «أمهم ليا» يوسف ، بنيامين «أمهما راحيل» جاد ، أشير «أمهما زلفة جارية ليا» وداود، نفتالى، «أمهما بلهة جارية راحيل» وولدوا جميعا بالعراق إلا بنيامين ولد فى كنعان ، نزل يعقوب وأولاده مصر بدعوة يوسف ، وأقاموا بمنطقة «جاسان ، أو جاشان» لوجود المراعى بها ، أو لإبعادهم عن قوم فرعون الوثنيين .

ولما هاجم الهكسوس مصر ومكثوا بها أربعة قرون «من الأسرة ١٤- ١٨» طردهم قائد مصرى من الأسرة الثامنة عشرة هو «أحمس» . ثم جاء ملك تنكر ليوسف وارتاع من تكاثر بنى إسرائيل في أرضه فأمر بقتل كل ذكر يولد منهم ، ثم كان موسى وتربيته بقصر فرعون ثم بعثه الله لابن هذا الفرعون ، وانتهى الأمر إلى خروجهم إلى «سينا» ثم دخول الشام .

١- ص ١٣٣.

س : يسأل الكثيرون عن موقف سيدنا يوسف عليه السلام من امرأة العزيز ، وكيف ينسب إليه أنه همَّ أن يأتى معها الفحشاء لولا أن رأى برهان ربه ، مع أن ذلك يخل بعصمة الأنبياء ؟

ج : ليكن معلوماً أن الأنبياء جميعاً في منزلة واحدة من حيث الإيمان بهم واعتقاد العصمة لهم ، فهم صفوة الله من عباده ، وإيمان المسلم لا يتحقق إلا بالإيمان بهم جميعا كما قال تعالى : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾[البقرة : ٢٨٥] لأنهم إخوة فى الدعوة إلى الله ، وقد قال النبى ﷺ «الأنبياء إخوة من عَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1] والطعن فى أحد منهم طعن فيهم جميعاً . وإن كان الله قد فضل بعضهم على بعض . وسيدنا يوسف – كما هو معروف في قصته التي بسطتها سورة خاصة باسمه – تربى فى قصر عزيز مصر وفتنت به زوجته وجاء فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٣ ، ٢٤].

لهذا المشهد من القصة بداية ونهاية ، فبدايته إغراء وعرض بالكلام ، ونهايته تشابك بالأيدى وعراك .

عرضت امرأة العزيز نفسها على يوسف بعد تهيئة الجو الكامل له ، فكان جوابه الرفض التام مستعيذاً بالله الذى يؤمن به ليحميه من المعصية ، ومذكراً لها أن الواجب الإنسانى يأبى أن يقابل المعروف بالجحود ، فربُّه أى سيده الذى رباه وائتمنه على عرضه وأسرار بيته لا يكون جزاء معروفه طعنه فى شرفه ، وخيانة فى أمانته فذلك ظلم ولا يفلح الظالمون .

وهنا أحست امرأة العزيز بصدمة عنيفة ضد رغبتها الجامحة ، وبطعنة قوية جرحت كبرياءها كسيدة له ، فقررت أن تنال منه بالقوة ما لم تستطع نيله باللين والإغراء ، فهمت به جذباً إليها أو انتقاماً منه ، وهمَّ بها تخلصا ودفاعاً ، وكاد يقضى عليها أو يلحق بها

---

١ – رواه البخارى ومسلم .

أذى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ذلك البرهان الذى ليس فى تعيينه دليل صحيح ، أو رأي ترتاح إليه النفس ، ولعله خوفه من الله أن يعاقبه على فتكه بها ، أو خوفه من زوجها أن يقتله ، فرأى الفرار من وجهها متجهاً إلى الباب وهى تلاحقه ممسكة بقميصه من خلفه ، ولم ينقذ الموقف إلا وجود زوجها لدى الباب ، فبادرت بالاتهام بل إصدار الحكم على يوسف ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] وبدفاعه عن نفسه وشهادة رجل من أهلها بقرينة قَدٌّ قميص يوسف من الخلف برَّأ الزوج يوسف وأدانها كما هو مفصل فى السورة .

إنه موقف بطولى من يوسف حيث صمد أمام كل المغريات ، فهو عَزَبٌ ، غريب، فى عنفوان شبابه وكمال حسنه ، أمام سيدة فى القمة جمالاً وثراءً وسلطاناً ، تقدمت هى بالرغبة ، وأمَّنَتْ له كل ما يخشاه فقال ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وتذكر واجب الشكر على المعروف.

فهل يُعقَلُ بعد أن رفض الفاحشة فى هذا الجو المُهَيَّأ أن تحدث منه مراودة وهمٌّ بما أباه ؟ إنهما موقفان فى بدء المشهد وفى نهايته ، كان فى كلٍّ منهما البطل المبرأ الساحة من الفحشاء ومن السوء معاً .

وكل ذلك حدث ولم يكن بعد قد جاءته الرسالة ، وهكذا يعصم الله رسله من المعاصى الكبيرة حتى قبل الرسالة حين كانوا فى فترة إعدادهم لهذا الشرف العظيم .

إن من خير ما يؤكد براءة سيدنا يوسف مما يتنافى مع عصمة الأنبياء ما قاله الفخر الرازى فى تفسيره حيث ذكر أن الذين لهم تعلُّق بهذه الحادثة سبعة ، وكلهم شهد ببراءة يوسف .

أولهم : رب العزة سبحانه وقد قال : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٤] .

ثانيهم : إبليس الذى قرر مع القسم ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص : ٨٢ ، ٨٣] .

وثالثهم : يوسف نفسه القائل ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ والقائل ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ .

رابعهم : المرأة نفسها وهى القائلة ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾[يوسف:٣٢].
﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[يوسف : ٥١].

خامسهم : زوجها وقد قال لها : ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾[يوسف : ٢٩].

سادسهم : ما شهد به الشاهد من أهلها ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾
[يوسف: ٢٦ ، ٢٧].

سابعهم : نسوة المدينة ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾[يوسف : ٥١].

تلك هى الشهادات ببراءة يوسف عليه السلام ولم يَصِرْ بَعْدُ نبيًّا ، فالواجب أن نحمل آيات القرآن على الوجه اللائق بهذه الشخصيات التى اصطفاها الله ، فلا يليق أن يحمل أمانته إلا الأمناء ولا أن يتشرف برسالته إلا الشرفاء .

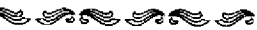

س : ما هى الرسالة التى جاء بها سيدنا يوسف عليه السلام ، وكيف نفهمها من القرآن الكريم ؟

ج : كل الرسل جاءت لتؤكد الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث بعد الموت، والبعد عن المنكرات ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٢٥] وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل : ٣٦].

وسيدنا يوسف عليه السلام جاء بما جاءت به الرسل ، فقد أمر صاحبى السجن بعبادة الله وحده وتنزيهه عن الشركاء ، قال تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يوسف : ٣٩ ، ٤٠] . وذلك بعد أن

قال لهما ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[يوسف : ٣٧ ، ٣٨] .

ذلك إلى جانب ما قرره عن عزوفه عن ارتكاب الفاحشة ومن عدم خيانة من ربَّاه وكفله وأحسن إليه ، ومن الإرشاد إلى التخطيط وعمل الاحتياطات للمفاجآت بتأويل الرؤيا وتخزين المحصول للطوارئ ، وغير ذلك مما جاء فى الآيات فى هذه السورة ، وهى كلها فروع فى التشريع بعد الدعوة إلى توحيد الله سبحانه .

س : ما المقصود بالبرهان فى قوله تعالى عن سيدنا يوسف ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[يوسف :٢٤] . ؟

ج : قبل الإجابة لابد أن نعلم أن يوسف لم يهم بها فاحشة ، لأنها عرضت نفسها عليه بالمراودة مع تهيئة لكل الأسباب لنيل غرضها وإغرائه وعمل كل ما يطمئنه على عدم مؤاخذته . فقال «معاذ الله» والهم السيئ بها لم يحصل لأنه رأى برهان ربه ، وفي هذا البرهان كلام كثير لا يستند إلى دليل صحيح ، والأقرب إلى الفهم أن الله ألهمه أنه لو هم بها ضربا لمنع نفسه منها حيث جذبته بقوة لتنال غرضها بعد أن فشلت المحاولة السلمية لأدى ذلك إلى ارتكاب جناية عاقبتها الدنيوية سيئة . فالبرهان إلهام من الله لإدراك العاقبة .

ويقرب من هذا المعنى ما روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن «زليخا» قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال : ماتصنعين؟ قالت : أستحى من إلهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله .

يقول القرطبى : وهذا أحسن ماقيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل ، ثم ذكر القرطبي آراء أخرى في البرهان ، فقيل : رأى فى سقف البيت مكتوبا ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ وقيل: ظهرت كف مكتوب عليها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ وقيل : تذكر عهد الله وميثاقه ،

وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضًّا على إصبعه يتوعده ، فسكن وخرجت شهوته من أنامله ، وقيل غير ذلك .

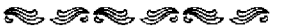

س : من هو فرعون موسى ؟

ج : ليكن معلوما أن لفظ «فرعون» يطلق على كل من ملك مصر من القدماء ، مثل كسرى للفرس ، وقيصر للروم ، والنجاشي للحبشة ، وفرعون موسى المذكور فى القرآن واحد منهم . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية ، وقال الجوهرى : كل عات فرعون والعتاة الفراعنة ، وهو ذو فرعنة أى دهاء ومكر ، وفى الحديث «أخذنا فرعون هذه الأمة» [1] ، وبخصوص فرعون موسى جاء فى مقال للمرحوم الشيخ فكرى ياسين نشر بمجلة الأزهر [2] أن ما كتب قديما وحديثا يؤخذ منه أن موسى عليه السلام أدرك عهدى ملكين من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، يقال للأول منهما «فرعون الاضطهاد» لأنه اضطهد بنى إسرائيل ، ويقال للثانى : «فرعون الخروج» لأنهم خرجوا من مصر في عهده .

وفرعون الاضطهاد هو رمسيس الثانى المعروف باسم «رمسيس الأكبر» وقد ولد موسى فى زمنه وتربى فى قصره ، وكانت آثاره عظيمة أعجب بها من جاءوا بعده حتى سمى عشرة منهم باسمه ، وكان قد بلغه ما هو مشهور يؤمئذ أن بني إسرائيل سيخرج منهم غلام يكون هلاك ملك مصر على يديد ، فأمر بذبح أبنائهم كما نص عليه القرآن الكريم . ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة ، ودفن بمقبرة «بيبان الملوك» ثم نقل إلى الأقصر، ثم إلى متحف بولاق .

وأما فرعون الخروج فهو «منفتاح الأول ، الابن الثالث عشر لرمسيس الأكبر ، وقد أشركه أبوه معه في الحكم قبل وفاته ، وعاصر موسى وهو يتربى فى بيت أبيه ،

---

١ - ذكره القرطبى، ج ١ ص ٣٥٣ .
٢ - المجلد العاشر ص ٣٠٣ .

وكان مولعا بتشييد المبانى كأبيه ، وكان يمحو أسماء الملوك من الآثار لينقش اسمه مكانها . وظل على اضطهاد بني إسرائيل حتى أرسل الله إليه موسى وهارون لدعوة التوحيد والخروج ببنى إسرائيل من مصر . وكانت النتيجة غرقه فى البحر ، وإنقاذ الله لجثته ليصدق بنو إسرائيل أنه قد مات ، ووجدت جثته مع جثث أخرى فى قبر «أمنحتب الثانى» بالأقصر ، ثم وضعت أخيرا فى المتحف .

وجاء فى المجلد الرابع والثلاثين من مجلة الأزهر [1] ، ما يؤكد ذلك ، حيث يوجد فى المتحف لوح كبير من الحجر الأسود اللون عليه قصة خروج بني إسرائيل فى عهد منفتاح .

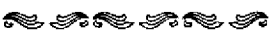

س : هل كان هارون عليه السلام رسولاً أم نبيا ؟

ج : الرسول إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به وأمر بتبليغه للناس ، أما النبى فهو إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه للناس ، وسيدنا هارون رسول من عند الله أرسله إلى فرعون ، قال تعالى لموسى : ﴿ ٱذْهَبَآ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[طه : ٤٢ ، ٤٧] . وجاء مثل ذلك فى سورة الشعراء : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الشعراء : ١٦] . ومادام هارون رسولاً فهو نبى أيضا ، لأن الرأى الصحيح أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا .

س : أين كان الحوار بين موسى والخضر ؟

ج : الحوار موجود بالتفصيل فى سورة الكهف ، والمفسرون وضحوه فلنرجع إلى كتبهم ، أما المكان الذى التقيا فيه أولا فهو مجمع البحرين ، وفى تحديده خلاف كبير ،

---

١ - ص ٧٤٢ .

والحوار حصل فى عدة أماكن ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ عند خرق السفينة وعند قتل الغلام وعند إقامة الجدار ، والجداركان فى قرية قيل إنها «أُبُلَّة» وقيل «أنطاكية» وقيل «باجَروْان» بناحية أذربيجان ، وقيل غير ذلك ، والقرية تطلق قديما على المجتمع الذى يعيش فى غير الصحراء ، أى فى أبنية ، والفرق الآن بين القرية والمدينة هو بحسب العرف . ثم أنبه إلى أن الخلاف فى هذه الأمور لا طائل تحته ، وكان من الممكن أن يبينها القرآن الكريم ، ولعل عدم بيانها إشعار لنا بأن المهم هو ما فى هذا العمل من العبرة والموعظة بصرف النظر عن المكان الذى وقع فيه ، وكم فى القرآن من أمور مبهمة فى القصص لا يضر الجهل بها ، كما لا يفيد بها فائدة تذكر .

س : قرأنا فى بعض المجلات بمناسبة كلام موسى مع النبي حين أخبره بأن الصلاة فرضت عليه خمسين (أن موسى لم يكن وصيا على الرسول حتى يقول له ارجع إلى ربك أكثر من مرة ، فهذا الحديث دخيل إسرائيلى يبين أن منزلة موسى رفيعة ، وأنه هو الذى وجَّه نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام للتخفيف عنكم) فما رأى الدين في ذلك ؟

ج : حديث الإسراء والمعراج رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، وهو بهذا في أعلى درجات الصحة ، وجاء فيه أن الله عندما فرض على النبي ﷺ الصلاة خمسين أشار عليه سيدنا موسى أن يسأل ربه التخفيف ، فخففت حتى صارت خمسا فى العمل وخمسين فى الأجر .

ويجب أن يلاحظ أن هذا الحديث فى موضوع خارق للعادة وفوق مستوى العقل البشرى ، ويجب التصديق به وعدم تكذيبه ، كما عليه أكثر العلماء من أن الخبر يفيد العلم اليقينى إذا كان متواتراً ، أو كان حديث آحاد ثبتت صحته .

كما يلاحظ أن الواجب هو تصديق الخبر من هذا النوع بجملته ، وإن ترك -وهذا ما لا يجوز - يترك كله ، ولا يصدق بعضه ويرفض بعضه الآخر .

إن فرض الصلاة ليلة الإسراء والمعراج على هذا النحو لم يعارض فيه أحد من شراح الحديث ، وما جرؤ واحد منهم على أن يقول : إن تردد محمد ﷺ بين ربه وموسى لسؤاله التخفيف - أمر دخيل على السنة وأنه من صنع اليهود ليثبتوا به الوصاية لموسى على محمد - بل إنهم آمنوا به إيمانا عميقا جعلهم يبنون على هذه الفقرة من الحديث قاعدة أصولية ، وهى هل يجوز النسخ قبل الفعل أو لا يجوز ؟

ثم لماذا يقال : إن هذه الفقرة تسلل إسرائيلى لصالح اليهود ، ولا يقال إنها ترتيب إلهى يسجل صورة من تمرد اليهود على موسى من ضمن صور التمرد ، التى حدثت منهم ، وهذا ما يدل عليه قول موسى للرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث «فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم» يقول الشراح : أى علمت منهم عدم الوفاء بذلك مع قوة أجسادهم وطول أعمارهم فلم أجد لهم صبرا على ذلك فكيف حال أمتك .

وقال القرطبي : الحكمة فى تخصيص موسى بمراجعة النبى ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها فثقلت عليهم ، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك ، ويشير إليه قوله : إنى جربت الناس قبلك [1] . وهناك توضيحات كثيرة لهذه النقطة لم يجر فيها نقد لها أو مجرد شبهة أنها دخيل إسرائيلى .

إن الأنبياء جميعا إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد كما ثبت عن النبىﷺ ، وليس بعيدا أن يشير أخ على أخيه بما يحقق له ولأمته المصلحة ، ثم ماذا يقول من يرفضون هذه القطعة من الحديث خوفا أن يظن أن هناك وصاية من موسى على محمد في تكريم محمد لموسى وعيسى ويونس وغيرهم من الأنبياء ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح قوله «وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى» وقوله عن موسى «لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق

---

١ - الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٦ ص ١٢٣ .

قبلى أم كان ممن استثنى الله» وقوله «ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس» وماذا يقول فى قول الله لنبيه محمد ﷺ بعد ذكر الأنبياء فى [الأنعام : ٩٠] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ هل كانت لهم وصاية عليه ﷺ ؟

ليس هناك وجه صحيح أبدا لرفض هذه المحادثة التى جرت بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، إن وجدنا فهما ممكنا وقريبا على وجه يبعد هذه الشبهة عن علاقة موسى بمحمد ، وأخشى أن تتحكم بعض الأفهام فى النصوص الثابتة فترفضها لوجهة نظر قد غلبتها ظروف قائمة ، مع أن مخارج الفهم الصحيح لها كثيرة ، ولولا أن القرآن الكريم قطعى الثبوت لقال بعض الناس فى قوله تعالى : عن القرآن الكريم ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾[الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧] كيف يحيل الله التصديق بالقرآن أو بمحمد على علماء بني إسرائيل ، أليس فى ذلك وصاية منهم على القرآن ومحمد ؟ وكيف يجعل لهؤلاء سلطانا وشهادة على ذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل : ٤٣] ومهما قيل فى هؤلاء فإن المقصود بهم من آمنوا منهم بالرسول والقرآن ، فيكفى أن الله شهيد على صدق محمد فى رسالته ومعجزته ، ولا حاجة لهؤلاء .

إن حديث الإسراء والمعراج حديث الغرائب ، وهو صحيح فى جملته وتفصيله كما رواه البخاري ومسلم ، ولم يخرجه أحد من المحدثين لا فى متنه ولا فى سنده ، ولم يقل أحد من الشراح إن فيه تسللا إسرائيليا فى مشهد من مشاهده أو موقف من مواقفه بل إن إعجابهم بهذا الموقف جعلهم يكثرون من التعليق عليه بألوان شتى تؤكد صدقه وحكمته المقصودة من ورائه ليفهمها من يصعب عليهم الفهم بعد أربعة عشر قرنا وضع فيها هذا الحديث على بساط البحث أمام مئات وآلاف عباقرة الإسلام المتخصصين الغيورين ولم يدر بخلد واحد منهم ما يدور اليوم بخلد غيرهم ممن يعجزون عن إقامة الدليل الصحيح المقنع على ما يدعون ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم : ٢٨] .

لئن كان هذا فهما لغير مسلم لهان الأمر وقلنا «شنشنة أعرفها من أخزم» وجزء من حملة التشكيك فى السنة ذريعة للتشكيك فى القرآن ، فكيف إذا كان هذا فهما لمسلم؟ لئن كان القصد سليما فإن رد الفعل على عقول وأفهام الكثيرين رد يخشى منه على نظرة البسطاء للسنة وللدين بوجه عام ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[النمل:٦٤].

س : لماذا طلب الله سبحانه من موسى عليه السلام أن يخلع نعليه في الوادي المقدس طوى ؟

ج : قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ ﴾[طه : ١١ ، ١٢] ذكر القرطبي في تفسيره اختلاف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر موسى بخلع النعلين ، فقيل لأن النعلين غير طاهرين ، لأنهما من جلد غير مُذكَّي ، أي غير مذبوح ذبحا شرعيا . وقيل لينال بركة الوادي المقدس وتمس قدماه تربة الوادي ، وقيل للخشوع والتواضع لله عند مناجاته وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت ، وذكر أقوالا أخرى كلها اجتهادية .

س : هل يمكن أن نعرف المكان الذى مات فيه سيدنا موسى عليه السلام ؟

ج : مبدئيا نقول : ما هى الفائدة التى تعود علينا من معرفة المكان الذى مات ودفن فيه سيدنا موسى عليه السلام ؟ لقد أشرت من قبل إلى عدم أهمية معرفة المكان الذى دفن فيه آدم عليه السلام ، ويستفاد مما ذكره القرطبي في تفسيره [1] أن هناك خلافا فى كون موسى وهارون كانا مع بني إسرائيل فى التيه الذى مكثوا فيه أربعين سنة ، فقال بعضهم : لم يكونا معهم ، لأن التيه عقوبة وهما لا يستحقانها ، ويؤيده قول موسى لما قعد بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة كما قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[المائدة : ٢٥] وقيل : كانا معهم لكن سهَّل الله الأمر عليهما كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم .

١- ج ٦ ص ١٢٩ .

ثم قال القرطبي : روى عن ابن عباس أن موسى وهارون ماتا فى التيه . وممن قال بذلك عمرو بن ميمون الأودى ، وكانا خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف فمات هارون فدفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل ولما سألوه عن هارون وأخبرهم بموته شكوا في قتله . فبرأ الله موسى بنطق هارون في قبره .

وقال الحسن : إن موسى لم يمت بالتيه ، وقال الثعلبي : أصح الأقاويل أن موسى فتح أريحا ومكث بها ثم قبضه الله ولا يعلم بقبره أحد من الخلائق ، وذكر القرطبي حديث مسلم عن مناقشة موسى لملك الموت ، وقول النبي ﷺ «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» فقد علم الرسول قبره ووصف موضعه ورآه فيه قائما يصلى كما في حديث الإسراء ، إلا أنه يحتمل أن يكون أخفاه الله عن الخلق سواه ولم يجعله مشهورا عندهم ، ولعل ذلك لئلا يعبد ، ويعنى بالطريق طريق بيت المقدس . ووقع فى بعض الروايات إلى جانب الطور مكان الطريق . ثم تحدث القرطبي عن لطم موسى عين ملك الموت وقد مر الحديث عن ذلك . ثم قال : إن عمر موسى كان مائة وعشرين سنة .

س : هل صحيح أن النبى ﷺ نهى عن تفضيله على سيدنا موسى عليه السلام ؟

ج : روى البخاري أن النبى ﷺ قال «لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى بجانب العرش فلا أدرى أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله» .

هذا الحديث يدل على ميزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وأود أن يعرف الناس أن المزية لا تقتضى الأفضلية ، فالميزات منح من الله يهبها لمن يشاء من عباده ، وسيدنا محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين وصاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود وصاحب الإنعامات الكبيرة فى الإسراء والمعراج وغيرها من أنواع التكريم – حمله كرم أخلاقه وحرصه على السلام على أن يحذر الناس من الخوض

فى الحديث عن تفاضل الأنبياء ، وجاءت في ذلك حوادث ونصوص كثيرة ، وإذا كان هناك انحراف من أتباع بعض الأديان يجعل المسلمين على حذر منهم وردِّ عدوانهم أو الوقوف أمام ظلمهم - فإن ذلك لا يعنى الانتقاص من أقدار الأنبياء الذين ينتسب إليهم هؤلاء المنحرفون زورا - فإن الأنبياء جميعا إخوة واحترامهم جميعا واجب «لا نفرق بين أحد منهم» فى الإيمان والاحترام .

س : ما رأى الدين فيما نراه فى بعض الكتب أن سيدنا داود عليه السلام أحب امرأة متزوجة فانتزعها من زوجها وتزوجها ؟

ج : إن القرآن تحدث عن سيدنا داود عليه السلام بما يتناسب مع مقام النبوة واصفا له بأنه أواب رجَّاع إلى الله ، آتاه الله الملك والحكمة وفصل الخطاب ، وألان له الحديد وعلمه منطق الطير ، وعصمه كما عصم جميع الأنبياء مما يخل بقدره وشرفه .

وليس من المعقول أن يغتصب امرأة لا تحل له ، أو يفكر فى حيلة يتخلص بها من زوجها ليتزوجها هو ، إن هذه الحادثة يتنزه أن يتورط فيها واحد من عامة الناس فكيف بالمصطفين الأخيار من رسل الله الذين بُعثوا للدعوة إلى القيم الأخلاقية العالية، وحاول المغرمون بالغرائب والناقلون عن أهل الكتاب دون تحوط لما ينقلون أن يَحْمِلُوا على تلك الحادثة قول الله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢١- ٢٦] .

إن ظاهر الآيات يدل على خصومة حقيقية بين فريقين فى غنم مشتركة بينهما ، وأن داود عليه السلام وقع فى خطأ ، استغفر ربه منه وخر راكعا ورجع إلى الله ، كما أن أمر الله لداود بالحكم بالحق وعدم اتباع الهوى قد يفهم منه أنه ظلم فى حكمه ومال مع الهوى ، فكيف يكون ذلك ؟

إن الكلام فى تفسير هذه الآيات كثير ، وادعى بعض المفسرين أن «النعجة» هى المرأة ، وأن القصة درس لداود الذى طمع في زوجه القائد «أوريا» ولم يقنع بما عنده من النساء . وهو كلام يتنافى مع مقام الأنبياء .

ومن أحسن ما قيل في ذلك أن الخصومة حقيقية في شركة أغنام ، وأن المتخاصمين أرادا التحاكم إلى داود على عَجل حتى يحسم النزاع غير أن داود كان إذ ذاك فى خلوته الخاصة ، يعبد ربه كنظام وضعه لنفسه في توزيع أعماله بين الله والناس ، ولم يجد الخصمان وسيلة للوصول إليه إلا تسوُّر المحراب الذى يتعبد فيه ، فظن داود أن مجيئهم في هذا الوقت وبهذه الصورة يراد به شر ، فطمأناه وطرحا أمامه الموضوع ، وبدأ أحد الخصمين بتوجيه الاتهام إلى الطرف الآخر ، فنطق داود بالحكم بإدانة صاحب الغنم الكثيرة قبل أن يدلى بحجته ، وهنا أحس داود أنه كان على غير صواب في ظنه أن هؤلاء يريدون به شرا ، وأن الله امتحنه بالخوف منهم ، فاستغفره مما حدَّث به نفسه ، ومَنَّ الله عليه بقبول استغفاره ، وأنزله عنده منزلا كريما .

ثم نبهه إلى أن مما يساعد على إصابة الحق والعدل في الحكم ، التأنى ، حتى تسمع حجة الطرفين معا ، وعدم التأثر بمظاهر الناس ، والبعد بالعواطف عن التدخل في الحكم ، فقد يكون المدعي مخطئا وظاهره يوحي بالصدق ، كإخوة يوسف الذين رموه في الجب وجاءوا أباهم عشاء يبكون مدعين أن الذئب أكله .

إن الذى وقع من داود عليه السلام هو ظنه أن الخصمين أرادا به سوءا ، فندم على هذا الظن واستغفر ربه ، وهو ظن له ما يبرره ، والأنبياء - وإن كان ما وقع منه لايؤاخذ عليه - مقامهم يضعهم دائما في موضع حساس ، لا يحبون أن يؤخذ عليهم ما هو في صورة ما يؤاخذ عليه . ونطقه بالحكم قبل سماع المدعى عليه ربما كان لأنه سكت ولم

يتكلم ، فكان سكوته إقرارا بما نسب إليه ، وتوجيه الله له باتباع الحق وعدم الميل مع الهوى على الرغم من صواب حكمه لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف ، فقد يكون توجيها بالاستمرار على اتباع الحق كما قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[الأحزاب : ١] فلم يكن منه عصيان حتى يؤمر بالتقوى .

وبعد ، فإن مما نتأسى به في قصة داود عليه السلام الرجوع إلى الله في كل الأحوال ، والصبر على ما يقوله أهل الباطل ، وعدم الأنفة من مزاولة أي عمل لكسب عيش شريف ، وأن الصوت الحسن نعمة من نعم الله ، تلين به القلوب وترتاح إليه الأعصاب ، فليكن ترويحنا عن النفس بما شرع الله ، وبما يعطيها نقاء وصفاء واستقامة ، بعيدا عما يغضب الله .

س : ما معنى قولـه تعالـى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[ص : ٣٤] وما نوع الجسد المذكور وما سبب فتنة سليمان به ؟

ج : الكلام في هذا الموضوع كثير ، ومكانه كتب التفسير ، ومن أحسن ما قيل ما رواه البخاري عن النبي ﷺ قال «قال سليمان : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وايم الذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» .

والمعنى أن الله سبحانه امتحن سليمان عليه السلام وابتلاه ، لأنه لم يقل إن شاء الله، وكانت نيته طيبة في طلب أولاد مجاهدين ، وظن أن الله معطيه كل شيء بدون حدود ، فأراد سبحانه أن يظهر له أن كل شيء بقدر ، وأن الأمل له حدود ، فلم تنجب واحدة من نسائه بهذا اللقاء إلا واحدة أتت بجسد هو نصف إنسان ، فرجع سليمان إلى ربه وتاب ، هذا بعض ما قيل والتأويلات كثيرة ، ولا حاجة إلى التعليق على عمل سليمان في قدرته كإنسان عادى أن يلقح تسعين امرأة في ليلة واحدة ، يجتمع مع كل واحدة حوالي خمس دقائق ، وهل كان الجهاز مستعدا بكمية كافية لتلقيح

كل واحدة في هذه الدقائق القليلة ؟ إن سليمان عليه السلام من واقع ما أعطاه الله من مسخرات القوى اعتقد أن التسخير بدون حدود ، وفي غمرة هذا الاعتقاد وهذا التكريم الواسع أراد الله سبحانه أن ينبهه إلى سيطرة إرادة الله على كل شيء فليس سليمان أقوى ولا أكرم من الملائكة الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

هذه خاطرة خطرت لي مع اعتقادي بأن الله على كل شيء قدير ، وما المعجزات ولا الكرامات إلا مظهر من مظاهر هذه القدرة التى تغير ما يراد تغييره من النواميس التي وضعها هو سبحانه لتدبير ملكه حسب إرادته ، فهو مالك الأمر كله وهو الحكيم الخبير.

س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] .

ج : امتحن الله أيوب بامتحانات في بدنه وأهله ، فمرض مرضا شديدا ليس بالصورة التي حكيت في كتب التفسير بدون دليل ، والتى لا تليق برسول يعمل لجمع الناس حوله وحبهم له لا لتنفيرهم منه . وضاع ماله وفقد أهله وأفسد الناس بينه وبين زوجته التى واسته بكل ما تملك .

وسبب الامتحان غير مذكور بسند صحيح ، ولشدة صبره وطول أمله في رحمة الله دعا ربه فكشف ما به من ضر ، وعوضه ما فقد من أهل ومال ، بل زاد على ما ضاع منه، وذلك رحمة من الله وعبرة للناس في وجوب الصبر وفي ثوابه العظيم .

وجاء في آيات أخرى كيف استجاب الله دعاءه . ففى [سورة ص : ٤٢ - ٤٤] قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وهناك تفاصيل كثيرة لا يتسع لها المقام ، فيرجع إلى كتب التفسير .

س : جاء في الآيات التى تتحدث عن سيدنا يونس عليه السلام ، أنه غضب وظن أن الله لا يقدر عليه ، فكيف يتناسب ذلك مع مقام الأنبياء ؟

ج : سيدنا يونس عليه السلام هو يونس بن مَتَّى من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم باسمه وبوصفه بذى النون وبصاحب الحوت ، والنون هو الحوت ، وكان رسولا إلى أهل «نينوى» بالعراق ، وكرمه سيدنا محمد ﷺ بقوله كما في الصحيحين «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» .

ويستفاد من الآيات التى تحدثت عنه أنه دعا قومه وخوَّفهم من عقاب الله إن لم يؤمنوا ، ثم تركهم غاضبا من موقفهم منه ، وتوجه إلى مكان آخر ، فركب سفينة كانت مشحونة كادت تغرق بحملها ، وعند الاقتراع على من يتخلصون منه فداء للباقين وقع السهم على يونس ، وانتهى الأمر إلى إلقائه في البحر ، فالتقمه حوت ومكث في بطنه مدة لا يعرف قدرها بالضبط ، وسبح ربه داعيا ، فنجاه الله وطرحه الحوت على الشاطئ مُتعَبًا ، فأنبت له شجرة من يقطين ، وهو القرع ، أو كل زرع ليس له ساق ، وبعد ذلك أرسله إلى قوم عددهم مائة ألف أو يزيدون ، يقال : إنهم هم الأولون الذين غضب منهم ، ويقال إنهم غيرهم ومتعهم الله إلى حين آجالهم .

والذى يلفت النظر في قصة يونس ، مما يمس عصمة الأنبياء ، قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[الأنبياء :٨٧] فمن الذى غاضبه يونس؟ وكيف يظن أن الله لن يقدر عليه ؟ كما أن قوله تعالى ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٢] يدل على ارتكابه ما يلام عليه ، وقول يونس في دعائه ﴿ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء : ٧٨] يدل على أنه ارتكب شيئا منهيًّا عنه ، وتحذير الله لنبيه محمد ﷺ بقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾[القلم : ٤٨] يدل على أن في يونس أمرا غير مرضى عنه ، فكيف ذلك ؟

والجواب : أن يونس لما رأى معارضة قومه تركهم مغاضِباً لهم لا مغاضبا لله ، وليست مغاضبة لهم لأمر شخصى ، بل خالصة لله . وليس في ذلك عيب يؤاخذ عليه .

وقد يقال : إذا لم يكن في المغاضبة بهذه الصورة ما يؤاخذ عليه فكيف يمتحنه الله هذا الامتحان الخطير بابتلاع الحوت له ؟ والجواب أن الامتحان كان لتعجله بمفارقتهم وعدم انتظار أمر من الله ، وكان الأولى أن ينتظر ، وإن كان له العذر فى أنه اجتهد وأداه اجتهاده إلى ذلك ، لكن عتاب الله لأوليائه المقربين قد يكون على ما يتسامح فيه مع الأشخاص العاديين . ومما يدل على أن العتاب كان للتعجل بالهجرة أمْرُ الله لنبيه محمد ﷺ بالصبر على ما يقوله قومه ونهيه أن يكون كيونس في عدم الصبر .

على أن بعض العلماء رأى أن هذه المغاضبة كانت قبل أن يرسله الله ، فتركهم إلى جهة أخرى ، وكان الأجدر به كمصلح أن يبقى معهم . ويشفع لرأيهم قول ابن عباس رضى الله عنهما : إن رسالة يونس كانت بعد نجاته من البحر .

أما ظن يونس أن الله لن يقدر عليه فليس فيه نسبة العجز إلى الله ، ولكن القَدْرَ - بسكون الدال- هنا يعنى التضييق ، كقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾[الطلاق : ٧] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] فيونس ظن ، والظن قد يراد به اليقين كما جاء في آيات كثيرة، ظن أن الله لن يضيق عليه واسعا ، وسيبدله قوما غير قومه ، وليس في ذلك ما يعاب عليه .

هذا ، وشهادة الله ليونس بقوله : ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[القلم : ٥٠] تنبهنا إلى عدم اتهامه بما يتنافى مع هذه الشهادة العظيمة .

وفي قصة يونس عليه السلام عبر ، منها أن المتصدى للإصلاح يلزمه الصبر والتحمل وسعة الصدر بالأمل ، وأن المؤمن إذا صدق في عبادته ودعائه استجاب الله له ونجاه من أخطر المهالك . وأن لله مع أوليائه تصرفات لا تخضع لقانون الأسباب والمسببات كالمعجزات والكرامات ، وأن بعض التسبيح والدعاء خير وأقوى من البعض الآخر، ومنه دعاء يونس في بطن الحوت : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] ولذلك قال بعض العلماء استنادا إلى مأثورات نبوية: إن اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب

هو دعاء يونس عليه السلام . وهو ليس خاصا به ، بل هو عام لكل مسلم كما قال سبحانه عقبه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

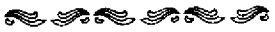

س : من هو إلياس المذكور في القرآن الكريم ؟

ج : قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الصافات : ١٢٣] وجاء ذكره أيضا في الآية الخامسة والثمانين من سورة الأنعام ، وذكر اسم «اليسع» في الآية التى تليها.

فقال بعض العلماء : إنهما اسمان لنبى واحد ، لكن الحق أنهما نبيان ، لأن الله أفرد كل واحد بالذكر ، والخلاف في «إلياس» كبير ، فقيل : إنه إدريس وهو خطأ ، وقيل: إنه الخَضِر ، وقيل غير ذلك ، وكان قبل زكريا ويحيى وعيسى قَيِّماً على بني إسرائيل بعد موت «حزقيل» .

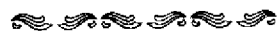

س : من هو زكريا ، وما معنى قوله تعالى ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ ؟

ج : ليس هناك نسب يعتمد عليه لزكريا في القرآن والسنة ، وفي سفر زكريا في العهد القديم [1] أنه زكريا بن برخيا بن عدو النبي . والله أعلم بصحة ذلك . وامرأة زكريا كانت عاقراً لم تلد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾[مريم : ٥] فلما دعا زكريا ربه أن يهبه وليًّا يرثه بشره الله بيحيى ، فحملت زوجته وولدته ، وهذا هو المقصود بإصلاح زوجته ، أي يجعلها صالحة بعد العقم ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] كما عليه أكثر المفسرين ، وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان ، فأصلحها الله وجعلها حسنة الخلق ، لكن الظاهر هو القول الأول .

١- ص ٨٠٨.

س : من هو ذو الكفل الذى ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ؟

ج : جاء ذكر «ذى الكفل» في عدة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنبياء : ٨٥] .

جاء في تفسير القرطبي [1] أن الجمهور على أن ذا الكفل ليس بنبى، وقال الحسن : هو نبى قبل إلياس ، وقيل هو زكريا ، وسمى بذلك لكفالته مريم.

وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه ، وقيل : سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه .

وذكر أبو عيسى الترمذى حديثا عن النبى ﷺ بإسناد حسن ، وكذلك أخرجه الترمذى الحكيم في كتابه «نوادر الأصول» أنه كان رجلا عاصيا ثم تاب إلى الله وهو في عصيانه فتاب الله عليه فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : إن الله قد غفر لذى الكفل .

س : هل كانت مريم نبية ، وما هى المدة التى حملت فيها عيسى ؟

ج : هناك فرق بين النبى والرسول ، وإن كان بين اللفظين تبادل في بعض الأحيان، ومع الأخذ في مفهوم الرسول أنه مكلف بتبليغ ما أوحى الله إليه إلى الناس ، فإن مريم ليست من الرسل ، لأنهم لا يكونون إلا من الرجال كما قال سبحانه :﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[النحل : ٤٣] ، ولأنهم هم الذين يستطيعون أن يقوموا بأعباء الرسالة ، نظرا لما عندهم من المؤهلات المناسبة .

أما أن تكون المرأة نبية يوحى إليها بشرع تعمل به دون أن تكلف بتبليغه للناس فذلك أمر ممكن ، ولذلك اختلفت أقوال العلماء في مريم هل هي نبية أم امرأة صالحة؟ أما كونها امرأة صالحة فذلك أمر مفروغ منه ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ

---

١ - ج ١١ ص ٣٢٨ .

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران : ٤٢] وقال ﷺ فيما رواه مسلم «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهل ترتقى بهذا الاصطفاء والتطهير والكمال إلى مرتبة النبوة ؟ قال بذلك الكثيرون من العلماء ، حيث إن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين .

أما المدة التى حملت فيها بعيسى فليس فيها نص صحيح ، يقول القرطبي : وهذه القصة تقتضى أنها حملت واستمرت حاملا على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر ، وقيل لتسعة وقيل لسنة ، والله أعلم [1].

س : يقول الله تعالى عن نفخ الروح في مريم وحملها بعيسى وولادته ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم : ٢٢ ، ٢٣] فما هى مدة حمل مريم بعيسى ؟

ج : إضافة إلى ما تقدم أقول : ليس هناك نص صحيح يبين مدة حمل السيدة مريم عليها السلام بسيدنا عيسى عليه السلام ، يقول القرطبي في تفسيره : وهذه القصة تقتضى أنها حملت واستمرت حاملا على عرف النساء وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر ، وقيل لتسعة وقيل لسنة، والله أعلم ، وجاء في تفسير ابن كثير لسورة مريم مثل هذه الأقوال وأن الجمهور على أنها حملت به تسعة أشهر ، ثم ذكر أن ابن عباس سئل عن حَبَل مريم فقال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت ، ثم قال : وهذا غريب ، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب -أى عدم التراخى- ولكن تعقيب كل شيء بحسبه ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا

---

١ - تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨٣ .

ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾[المؤمنون:١٢ـ ١٤] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها ، وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما ، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[الحج:٦٣] فالمشهور الظاهر -والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس ، يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره وأنكر ذلك منها ، ثم صرفه ما يعلم عن براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره ، لا يستطيع صرفه عن نفسه فحمل نفسه على أن عرَّض لها في القول، فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليَّ قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت نعم -فهمت ما أشار إليه- أما قولك «هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر فإن الله خلق الشجر والزرع وأول ما خلقهما من غير حب ولابذر «وهل خلق ولد من غير أب» فإن الله خلق آدم من غير أب ولا أم ، فصدقها وسلم لها حالها ، انتهى ما قاله ابن كثير والله أعلم بصحة هذه المحاورة بين مريم ويوسف النجار ، ولكن موضوعها صحيح فيما أجابت به مريم أسئلته .

ومهما يكن من شيء فإن هذا لا نكلف به كعقيدة ، وهو مدة حملها ، والمهم أنها ولدته من غير زواج ولا طريق آخر كما نصت عليه آيات القرآن الكريم .

س : ذكر في القرآن أن الله فضل مريم على نساء العالمين وفضل بني إسرائيل كذلك على العالمين ، فأين بنات النبي وزوجاته ، وأين الأمة الإسلامية ؟

ج : قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران : ٤٢] وقال ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة : ٤٧] .

١ - قال القرطبي في تفسيره [1] في اصطفاء مريم : إن الاصطفاء هو على عالمى زمانها ، كما قاله الحسن وابن جريج وقيل : إن الاصطفاء هو على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور ، وهو قول الزجاج ، وهو الصحيح ، وروى مسلم أن النبي ﷺ قال «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»

ومعنى الكمال التناهي والتمام ، والكمال المطلق لله خاصة ، وأكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين ، وإذا تقرر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعنى به النبوة ، فيلزم أن تكون مريم وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك ، والصحيح أن مريم نبية ، لأن الله أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين . ولم يرد ما يدل على نبوة آسية دلالة واضحة .

ثم ذكر القرطبي أحاديث صحيحه منها «خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد» ومنها «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ومنها «سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة» وأقول الخيرية أو الأفضلية بالنسبة إلى نساء العالمين تلتقى مع ذلك بالنسبة إلى نساء أهل الجنة ، وعطف الأسماء بالواو لمطلق الجمع لايقتضي ترتيبا كما تفيده الفاء أو ثم ، لكن القرطبي رتبهن وجعل أفضلهن مريم للتعبير في الرواية الأخيرة بلفظ «بعد مريم» والباقي منهن ليس فيه ما ينص على الترتيب بينهن لكنه رتبهن فقال ما نصه : فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم ، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ، فإن الملائكة قد بلغتها الوحى عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ، فهى إذاً نبية ، والنبى أفضل من الولى ، فهى أفضل كل النساء الأولين والآخرين مطلقا ، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية ،

---

[1] - ج٤ ص ٨٣ .

وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ، ثم آسية» وهذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء ، وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة فليس هذا لأحد من النساء ، وصدَّقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بُشرت كما سأل زكريا عن الآية ، ولذلك سماها الله في تنزيله صديقة فقال ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] وقال ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[التحريم : ١٢] إلى أن قال : ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب ، ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة ، جاء في الخبر عنه ﷺ «لو أقسمت لبررت ، لايدخل الجنة سابقى أمتى إلا بضعة عشر رجلا ، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران» .

ثم ذكر أن من قال من العلماء بأنها لم تكن نبية قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبى حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر ، وعليه الأكثر .

هذا ما ذكره القرطبي وأقول : إن كان لبعض الرجال أو النساء فضل ، فذلك فضل من الله ، ولا ينالنا منه إلا الحث على السير على منهجهم ، ولا داعي للبحث فيمن هو أفضل من غيره ، فلا يفيدنا ذلك - كما يقول العلماء إلا في الأيمان والتعاليق ، كما يحلف أن فلانا أفضل من فلان ، أو إن كان فلان أفضل من فلان فعلت كذا .

٢ - وأما تفضيل بني إسرائيل على العالمين فقد قال فيه القرطبي [1] : يريد على عالمى زمانهم ، وأهل كل زمان عالم ، وقيل : على كل العالمين : بما جعل فيهم من الأنبياء وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم . انتهى .

---

١ - ج ٣ ص ٣٧٦ .

وفي تفسير ابن كثير للآية رقم ٤٧ من سورة البقرة أن الأمة الإسلامية أفضل من أمة بني إسرائيل لقوله تعالى خطابا لهذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري قال : قال رسول الله ﷺ «أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله» والأحاديث في هذا كثيرة . وأوردها عند تفسير الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وقال : إن الحديث المذكور رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، وهو حديث مشهور حسنه الترمذي .

وقوله : بما جعل فيهم من الأنبياء يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[المائدة : ٢٠] وقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[الجاثية : ١٦] وقوله ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[الدخان : ٣٢] .

وإذا كان الله فضلهم على السابقين وأنعم عليهم بهذه النعم فإنهم لم يشكروها ، حيث تمردوا على موسى وعبدوا العجل والطاغوت وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وعصوا الأنبياء الذين أرسلوا إليهم واعتدوا عليهم وعلى غيرهم ، فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة أينما وجدوا ، وبعث عليهم يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، ومسخ بعضهم قردة وخنازير ، وفي كل ذلك جاءت آيات القرآن الكريم ، وقال تعالى فيهم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[الإسراء : ٧] وقال﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: ٨] ذلك قانون الله الذى يرتب الجزاء على العمل ، يبطل زعم القائلين بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وذلك القانون سار على جميع خلقه من يوم أن خلق آدم إلى يوم الساعة يطبق على كل الأنبياء والرسل ، وعلى كل أمة من الأمم ، بما فيهم أفضلهم وهو سيدنا محمد ، وأفضل الأمم وهى أمته التى جعلها الله خير أمة أخرجت

للناس ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات : ١٣] ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[طه : ١٢٣، ١٢٤] .

س : هل كانت السيدة مريم نبية ، ولماذا لم يذكر اسم امرأة غيرها في القرآن الكريم؟

ج : قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[النحل : ٤٣] هذا الحصر في الرجال قد يكون لإخراج النساء ، فلا يكون منهن رسول ، وقد يكون لإخراج الملائكة ، بمعنى أن الرسل للبشر لا تكون من الملائكة وقرر الله أنه لو أرسل للبشر ملكا لجعله رجلا ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام : ٩] وقال تعالى﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف:١١٠] وقال تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء : ٩٥] .

والرسالة القائمة على التبليغ هي قيادة للخير ، بالإرشاد والاتباع ، وفيها جهود جبارة لنشر الدعوة ومقاومة الفساد والتغلب على العقبات ، وقد يكون فيها حرب وقتال وسفر وترحال ، واستعدادات الرجال تتناسب مع هذه المهمة ، إلى جانب أن الرجل هو الأصل في أن يكون خليفة في الأرض ، والمرأة خلقت منه لتساعده على تحقيق هذه الخلافة فيما تستطيعه ويتناسب مع استعدادها .

هذا في الرسالة التى تستلزم التبليغ ، أما النبوة التى تقتصر على مجرد تلقّى الوحى من الله للعمل به دون الأمر بتبليغه فقد تكون للمرأة ، كما قال بعض العلماء عن أم موسى وعن مريم عليهما السلام ، والاستدلال والمناقشة لا يتسع لهما المقام .

وأما عدم ذكر اسم امرأة في القرآن إلا مريم ، فذلك لأن لها شأنا خطيرا في عقيدة هى أهم العقائد ، وهى عقيدة التوحيد وتنزيه الله سبحانه عن الزوجة

والولد ، وبيان الوجه الحق في طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قبلها الله لخدمة بيته ، لأن أمها نذرت ما فى بطنها لذلك وكانت تود أن يكون ذكرا ، واشتهرت بالعفة والطهارة، وهي فى محرابها تؤدى واجبها ، وحملت بغير الطريق العادى حيث نفخ الله فيها الروح بواسطة جبريل عليه السلام ، وكان ولدها عيسى عليه السلام ، ممن ظهرت خوارق العادة على أيديهم منذ صغره ، حيث تكلم في المهد صبيًّا ، إلى غير ذلك من الأمور التى جعلت لعيسى ولأُمه شأنا غير عادى ، ولذلك قال بعض العلماء : إن مريم من الأنبياء : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران : ٤٢] .

فلهذه الاعتبارات ذكر اسمها في القرآن الكريم ، وليس معنى هذا أن غيرها من النساء لا فضل له ولا شأن ، فالكلام كثير حول أفضل النساء على الإطلاق لا مجال لذكره الآن . ومن هذا الباب ذكر اسم زيد بن حارثة في القرآن لأهميته في تقرير الحكمة في مبدأ وزواج زينب بنت جحش ، ولا يعنى هذا أن زيدًا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما ، حيث لم يذكروا بأسمائهم الصريحة في القرآن الكريم .

س : لماذا ألقى عيسى عليه السلام السلام على نفسه حين قال «والسلام عليَّ يوم ولدت» ؟

ج : قال الله تعالى في شأن يحيى عليه السلام حين بشر أباه زكريا عليه السلام ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم : ١٥] وقال على لسان عيسى عليه السلام حين خاطب عيسى قومه ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم : ٣٣] .

إن كلا من النبيين العظيمين عليهما سلام وأمان من الله ، أو تحية ألقاها الله على كل منهما ، لكن السلام على يحيى كان في مقام بشارة الله لأبيه به ، مقدَّما قبل أن

يولد، فهو سبحانه يحكى لزكريا صفات يحيى التى يكون عليها ، والنعم التى أنعم بها عليه وقدَّرها قبل أن يولد ، أو في مقام إخبار الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بقصة زكريا ويحيى كما جاء في صدر سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ومقام الإخبار يناسبه قول الله عن يحيى «وسلام عليه» ويحيى لم يتكلم بذلك حتى يقول : والسلام علىَّ .

أما سيدنا عيسى فكان يتحدث عن نفسه ، مبينا لقومه ما منَّ الله به عليه حيث قال ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[مريم : ٣٠ - ٣٣] .

هذا أحسن ما قيل في هذا الموضوع ، وأما ما يروى أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام : أنت خير منى ، لأن الله سلم عليك . فليس له سند يعتمد عليه ، فكلاهما قد سلم الله عليه ، وكما قال بعض المفسرين : إن السلام المعروف بأل الذى قاله سيدنا عيسى عليه السلام هو السلام المنكر ، أى الخالى من «أل» الذى كان من الله على يحيى ، وذلك على حد قولهم : إن المنكر إذا كرر معرَّفا كان هو هو ، فَأَلْ للعهد .

إن الموضوع يتصل باللفظ أكثر مما يتصل بالمعنى ، فإن كلا من يحيى وعيسى قد حياه الله وأمنه وباركه ، ونرجو أن نحظى بذلك إذا اتبعنا ما جاء به الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام : ٨٢] .

س : هل رفع عيسى عليه السلام حيا أو ميتا ، وأين مدفنه ؟

ج : جاء الحديث عن وفاة سيدنا عيسى ورفعه في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[آل عمران : ٥٥] ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾[النساء: ١٥٧، ١٥٨] ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة : ١١٧] .

والآية الأخيرة في معرض كلام الله تعالى لعيسى يوم القيامة ، ولا شك أن كل حى سيموت ويبعث بعد الموت ، والآيتان الأخريان تؤكدان رفع عيسى إلى الله وأن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه ، وفي الآية الأولى منهما أن الله متوفيه ورافعه ، فالقدر المتفق عليه أن عيسى لم يقتل ولم يصلب وأن الله قد رفعه إليه وتوفاه ، والخلاف هنا في نقطتين في معنى الرفع ومعنى الوفاة ، وفي سبق أحدهما على الآخر.

أما النقطة الأولى : فقيل في معنى الرفع : رفع مكانة ومنزلة بالنصر على الأعداء، وذلك قدر مشترك بين الأنبياء جميعاً لا يختص به عيسى ، وقيل إنه رفع مكان ، والمكان هو السماء ، لأنه هو الذي يرفع إليه من الأرض التي كان يعيش عليها عيسى، لعل هذا المعنى يكون أرجح ، لأن رفعه من الأرض إبطال لكيد من دبروا قتله فلا يمكنهم أن ينالوه .

وقيل في معنى الوفاة الموت الحقيقى لأنه هو الذى يتبادر إليه الذهن إذا أطلق لفظ الموت ، وقيل معناها النوم لأنه يسمى وفاة كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[الزمر : ٤٢] وقال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[الأنعام : ٦٠] .

وقيل معناها توفية الأجل وإتمام المدة المقررة له في الدنيا .

وأما في النقطة الثانية : فالعطف بين الوفاة والرفع هو بالواو ، والعطف بها يفيد مطلق الجمع بينهما في الحصول دون ترتيب ولا تعقيب ، فيا ترى أيهما كان السابق ؟ قال بعض المفسرين : الرفع هو السابق والوفاة تكون بعد ذلك إما في السماء وإما في آخر الحياة الدنيا فكل نفس ذائقة الموت .

وقيل : الوفاة هي السابقة على الرفع ، بمعنى أن الله ألقى عليه النوم ثم رفعه حتى لا يحصل له رعب وهو يرى نفسه محلقا في الأجواء العالية ، أو بمعنى أن الله قبض روحه ثم رفعه ميتا ، وقد يكون هذا المعنى بعيداً لأمرين : أن الله نجاه من القتل فلماذا يميته ؟ وكلاهما ألم بإزهاق الروح وأنه سينزل آخر الزمان كما صح

ذلك في الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» والقريب إلى التصور أن يكون في السماء حيا ثم ينزل إلى الأرض ، لا أن يكون ميتا ثم يبعثه الله بعد موته لينزل إلى الأرض [هناك كلام كثير في عمر عيسى عندما بعث ، وعندما رفع ، وكم يمكث بعد نزوله من السماء ويراجع في شرح الزرقانى على المواهب اللدنية][1].

ومهما يكن من شيء فكلها احتمالات لا تتقرر بها عقيدة ، فمن اختار أى رأى فلا حرج عليه ، مع الاتفاق على أنه عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وأن الله رفعه .

وكتب التفسير مملوءة بالمناقشات لترجيح بعض الآراء على بعض ، وأرى أن نكتفي بالقدر المتفق عليه ، ونوجه اهتمامنا إلى واقع حياتنا الذى يحتاج إلى بحث عميق وتفكير طويل .

هذا ، وقد جاء في كتاب خلاصة الوفا للسمهودى[2] حديث رواه الترمذي عن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه ، وقال الترمذى : حديث غريب . وفي بعض النسخ : حسن غريب. وروى الطبراني أن عيسى يدفن مع الرسول وأبى بكر وعمر ، وفي سنده عثمان ابن الضحاك بن عثمان ، وثقه ابن حبان وضعفه أبو داود .

وجاء في المشكاة عن كنز العمال عن عمرو بن العاص حديث إن عيسى ابن مريم ينزل إلى الأرض فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت ويدفن معى في قبري أنا وعيسى ابن مريم بين أبى بكر وعمر . وكلها أخبار لا تثبت بها عقيدة، وأرى عدم الاهتمام بها[3] .

---

١ - ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ ، وفي كتاب «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح» للشوكاني .
٢ - ص ٢٠٦ .
٣ - انظر بحث الشيخ جاد الحق في كتابه «قضايا عصرية ج ٥ ص ٣٢٩» .